أُصُولُ الخِطَابَةِ وَالإِنْشَاءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الموضوع	الصفحة
* مقدمة	٥
تعريف الخطابة ونشأتها	٩
ـ تعريفها، أركانها	٩
ـ نشأتها	١٠
الفرق بينها وبين غيرها من فنون النثر	١١
الفرق بين الخطابة والمحاضرة	١٢
خصائص الخطابة	١٣
أهمية الخطابة وآثارها	١٥
عناية الإسلام بالخطابة	١٨
دواعي قوة الخطابة	٢٧
عيوب الخطيب وما ينبغي تجنبه	٢٩
ما يلزم إعداده للخطبة قبل إلقائها	٣٤
التحضير للخطابة	٣٤
التخطيط للخطابة قبل الإقدام عليها	٣٦
أجزاء الخطبة	٣٩
١ ـ المقدمة وأنواعها	٤١
٢ ـ الموضوع	٤٦
٣ ـ الخاتمة	٥٢

الموضوع	الصفحة

نماذج خطابية للدراسة والتحليل ٥٤
أولاً: من العصر الجاهلي: ٥٤
١ ـ خطبة في الرثاء ٥٤
٢ ـ خطبة في النكاح ٥٦
٣ ـ خطبة في الحماسة ٥٩
٤ ـ خطبة في التفكر والاتعاظ ٦٥
٥ ـ خطبة في الدعوة إلى الإسلام ٦٩
ثانياً: الخطابة الإسلامية ٧٨
أ ـ أول خطبة للرسول ﷺ في مكة ٨٠
ب ـ خطبة المصطفى ﷺ في حجة الوداع ٨٦
ـ نصها ٨٧
ـ دراستها علمياً وأدبياً ٩١
ـ أسلوبها، موضوعها ٩٢
عرضها ٩٣
ـ ترتيبها وقوة الربط ٩٦
نماذج للتحضير والإعداد: ٩٨
ـ الحج مؤتمر إسلامي عام ٩٩
ـ الاستقامة أساس كل خير ١٠٣
نماذج من الخطب يطلب تحليلها ١٠٧
١ ـ للصدِّيق ﷺ بعد البيعة ١٠٧
٢ ـ للصدِّيق ﷺ بعد البيعة ١٠٧
٣ ـ لعمر ﷺ بعد الخلافة ١٠٩
٤ ـ لعمر ﷺ بعد الخلافة ١١٠

الموضوع	الصفحة

خاتمة وتذييل ١١١
ـ توجيه الطالب إلى ما يقرأ ١١٢
ـ مع الدكتور طه حسين ١١٣
ـ مع إيليا حاوي ١١٦
ـ للإسلام ذاتية مستقلة ١٢٨
* **فهرس** ١٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة المؤلّف

الحمْد لله ذي الجود والإحسان، خلقَ الإنسان وعلَّمه البيان، أكرمه بالعقل وميَّزه بالقول وفضَّله على كثير من خلقه، واستخلفه في الأرض، فكانت نشأته قدرةً وإنشاؤه عبرةً، وقد اشتملهما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

فتَمَدَّح تعالى بخلق الإنسان، وامتنّ عليه بتعليمه البيان.

وفي جمعهما مع تعليم القرآن في موطن واحد، لفتٌ للأنظار إلى أنه فضلٌ عظيم، وامتنانٌ جسيم، وكأنَّ فيه إيماءً إلى ارتباط علم البيان برسالة القرآن، كوسيلة لفهمه، وأداة لإفهامه، ولا شك أن الناس متفاوتون في ذلك إلى حد بعيد، وتفاوتهم أمر طبيعي لا بد منه.

مدى تفاوت الناس في ذلك: من الناس من أعطاهم الله فصاحة وبلاغة، فمنحهم قلباً عَقُولاً، ولساناً قؤولاً تفيض من قلبه الحِكمُ، وتتناثر عن لسانه الدررُ. إن تكلَّم أسمعَ، وإن

حادَثَ أمتعَ، يمتلك شعورَ السامعين، ويتحكم في عواطف الحاضرين، فيثير شعورهم إلى ما أراد، يعمل بيانه في الآذان عملَ السحر في الأذهان، يَصدقُ عليه قوله ﷺ: «**إنَّ من البيان لسحراً**»[1].

ويصدقه قول الشاعر:

وحديثُها السحرُ الحلالُ لو أنه
لم يجنِ قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إن طالَ لم يُملَلْ وإن هي أوجزَتْ
ودَّ المحدِّثُ أنها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العقول ونُزهة ما مثلُها
للمطمئن وعُقْلَةُ المستوفز

فهذا لا يعُوزه إلا التنسيق والتخطيط، وهو أحق بمنصة الخَطابة وتوجيه الحديث، ومن الناس من لا يتجاوز بيانه الإفصاح عن رأيه، وربما أعوزه التعبير عما يريد، وهذا في أمس الحاجة إلى العلم بقواعد الخطابة، وأساليب البيان، وطرق التعبير، وأخذِ نفسه بكثرة المران؛ ليستفيد إلى حد بعيد، فقد يصبح في طليعة البيانيين، وقدوة الخطباء والداعين.

ولهذا اشتدت الحاجة إلى وضع مبادئ لأسس الخطابة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر.

التي هي مفتاح الدعوة، وسلاح الإصلاح، وأداة التوجيه، في كل زمان ومكان، وصالحة لكل ميدان.

ويتحتم على طلاب الجامعات الإسلامية عامة أن يُلموا بكل مقومات الخطابة؛ ليساعدهم على أداء مهمتهم، والقيام بواجبهم.

محتويات هذه الرسالة:

وقد عُنيت هذه الرسالة، بتعريف الخطابة، وبيان نشأتها، وخصائصها وأهميتها، ودواعي قوتها، ثم بيان ما يلزم الخطيب من إعداده للخطابة، وبيان العيوب التي ينبغي تجنبها، ثم تقسيم الخطبة إلى أجزاء رئيسية، ورسم الخطة للتخطيط السليم للخطابة الناجحة.

ثم إيراد نماذجَ خطابية، لمواضيع مختلفة، من العصرين: الجاهلي والإسلامي، مدروسة ومحللة دراسة وافية وتحليلاً فنياً.

ثم إيراد عدة نصوص للدرس، تحلل أثناء الدراسة تطبيقاً لما مضى، كدراسة عملية، ثم نماذج للتحضير، اشتملت على العناصر اللازمة لتكوين الخطبة، يترك للطالب إتمامها، ويعمل على منوالها. وقد ذيلت هذه الرسالة بخاتمة ناقشت بعض الكتابات حول هذا الموضوع، مبينة ما ينبغي اختياره، وما يجب اجتنابه في فن القراءة عامة، وموضوع الخطابة خاصة، مما لا بد للطالب من الوقوف عليه، ويجب على الكاتب

التنبيه عليه، وقد توخيت في عرضها السهولة والإيضاح.

فإن جاءت وافية بالغرض فهذا هو المطلوب وبفضل الله كان، وإن جاءت دون ذلك فلن نعدمَ بإذن الله مَن يصل بها إلى الغاية المرجوة تعاوناً على أداء الواجب العام الذي تفرضه رسالة التعليم.

والله أسأل أن ينفع بها كل طالب، ويوفق لتدعيمها كل أستاذ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

عطية محمد سالم

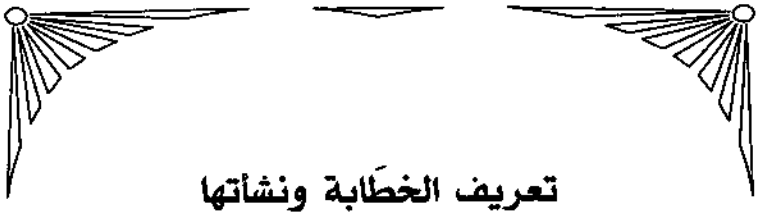

تعريف الخطَابة ونشأتها

تعريفها:

هي نوع من أنواع المحادثات، وقسم من أقسام النثر، ولون من ألوانه الفنية تختص بالجماهير بقصد الاستمالة والتأثير، وعليه؛ فأتم وأسلم تعريف لها هو أنها: «**فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم**».

وقد يزيد بعض الناس كونها بكلام بليغ، إلا أن هذا القيد شرط كمال يكون حسب حالة المخاطَبين، لأن حقيقة البلاغة في الكلام إنما هي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال، وقد يقتضي الحال أحياناً أن يتخلى الخطيب عن الأساليب البلاغية الصناعية.

أركانها:

ومن هذا التعريف الموجز «فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم» نستخلص عناصر الخطبة وأركانها، فنجد ضرورة وجود الآتي:

١ ـ فن: أي خبرة ومعرفة ومرانة وملكة.

٢ ـ مخاطبة: أي مشافهة، ومواجهة.

٣ ـ خطيب: أي لا مقرئ أو مُلْقٍ يقرأ كتاباً أو يلقي موضوعاً.

٤ ـ جمهور: أي جمع كثير من المستمعين.

٥ ـ تأثير: أي إثارة عواطف وتنبيه شعور.

وإذا ما انعدم عنصر أو ركن من الخمس افتقدت الخطابة جزءاً هاماً منها. ولا ينبغي أن تسمى خطابة للآتي:

أ ـ لأنه إذا انعدم الفن والخبرة: كان الكلام تهريجاً.

ب ـ وإذا عُدمت المخاطبة كان تلاوةً أو ترديداً.

جـ ـ وإذا لم يوجد جمهور كان الكلام حديثاً أو وصية.

د ـ وإذا لم يوجد خطيب كان إلقاءً وقد يكون بالنيابة عن غيره.

هـ ـ وإذا لم يحصل تأثير كانت عديمة الثمرة ومضيعة للوقت.

نشأتها:

بما أن الخطابة لون من المحادثات، فالمحادثات رافقت الإنسان منذ وجوده على التحقيق، ولكن الخطابة تميزت بحقيقتها عن مطلق محادثة إلى فن، واختصت بالجماهير دون الأفراد، وقصد بها التأثير والاستمالة، لا مجرد التعبير عما في النفس...

إذاً فلا بد أن تكون في نشأتها قد خطت خطواتِ تطورٍ

وتخصصٍ من حديث إلى فن، ومن أفرادٍ إلى جماهير. وكانت نشأتها استجابة لما دعت إليه حاجة الجماهير بعد توسع ميادين الحياة وتعدد اتجاهاتها، وما يصحبه من اختلافات تدعو إلى توحيد فكر، أو إقناع برأي، والتأثير على المخاطبين. وإذا لاحظنا الأديان والرسالات السابقة أدركنا مقتضيات وجودها ونشأتها كفن متميز.

فهي إذاً وليدة رقي فكري، وتقدم اجتماعي، قضت زمناً حتى ارتفعت وتميزت أولاً بالجماهير، وثانياً اختصت بأغراض خاصة ومواقف معينة، وثالثاً اتسمت بأسلوب وهيئة حتى وصلت إلى عصور التاريخ والتدوين على الحالة التي وصلت إليها من حقيقة مميزة عن غيرها. ولم تزل في رقي وتقدم حتى أصبحت عنواناً على منزلة الأمم ومكانتها كما في وفد العرب على كسرى.

الفرق بينها وبين غيرها من فنون النثر:

لا يخلو الكلام مع الناس من كونه مع أفراد أو جماهير، فالكلام مع غير الجماهير إن كان للإفهام والبيان فهو حديث، وإن كان لحثٍّ على مصلحتهم شفقةً بهم فهو وصية.

والكلام مع الجماهير، إما أن يكون لشرح حقيقة علمية، أو لبيان نظرية، فهو محاضرة، وإما أن يكون لإثارة الشعور، وبث الحماسة، وتحريك العواطف، واستمالة المخاطبين، فهو خطابة.

وعليه فالخطابة، والمحادثة، والوصية، والمحاضرة، تشترك كلُّها في فن النثر. وتختص الخطابة والمحاضرة بالجماهير.

الفرق بين الخطابة والمحاضرة:

أ ـ المحاضرة هي القصد إلى حقيقة علمية أو نظرية تُلِمُّ بأطرافها، وتُظهر غامضها، وتُزيل لبسها، وعليه فهي تعتمد الحقائق لا الخيالات، وتخاطب العقول لا العواطف، وتستهدف العلم، لا الإثارة، وتخص غالباً المثقفين.

ب ـ أما الخَطابة فهي القصد إلى فكرة ورغبة تزين أوضاعها وتحسن أهدافها، وقد تكون معلومة من قبل فهي تعمد إلى الإثارة والإقناع، وتخاطب العواطف والشعور وتستهدف الاستمالة، وتعمُّ المثقفين وغيرهم.

ويلاحظ أن الخطابة بالنسبة إلى المحاضرة قد يجتمعان وقد يفترقان. وأن المحاضرة تكون موضوعاتها دائماً وأبداً علمية، دينية كانت أو دنيوية، كأن يأتي مهندس زراعي يشرح نظرية تلقيح النبات وعوامل نقل اللقاح من الذكور إلى أزهار الإناث عن طريق الحشرات أو الماء أو الرياح، أو يأتي طبيب يبين مراحل الحمل من حيوان منوي وبويضة إلى علقة ومضغة ووسائل تغذيته إلى بروزه طفلاً.

أو يقوم عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيتناول ركن

الزكاة: متى شرعت، وعلى من، ونوع المال الذي تجب فيه، وشروط وجوبه، ومصارفه، وما وراء ذلك من حِكَم ومصالح.

أما الخطابة فقد تكون موضوعاتها معلومة بالفعل، كما في خطب الجمع مثلاً إذا تناول الخطيب موضوع الصدق والأمانة، يحث عليهما، أو موضوع الربا وحذَّر منه، فإن جميع السامعين يعلمون وجوب الصدق ولزوم الأمانة، كما يعلمون تحريم الربا.

إلا أن الخطيب حينما يتكلم عن المعلوم فإنما يريد إثارة العواطف والشعور بما علمت ويؤثر على السامعين بما يلقيه عليهم، ويصل بهم إلى العمل بالفعل.

فلا يعدم من السامعين من يعزم على تحري الصدق، أو من يندم على التعامل بالربا، وقد يوفق بالتزام هذا وإقلاع ذاك، وهذه هي الغاية من الخطابة الناجحة. ومن هذا تظهر خصائصها.

خصائص الخطابة:

بالنظر إلى أنواع النثر من حكم وأمثال ووصايا ومفاخرات ونحوها وخطابة ومحاضرات، نجدها كلها ما عدا الخطابة والمحاضرة تسير في مجال فردي، ويتسم أغلبها بالاختصار والإيجاز، وتؤدى بأي أسلوب، ويؤديها أي إنسان.

أما الخطابة فهي تخص الجماهير، والخطيب قد يواجه

جمهوراً مختلف الطبقات، متنوع المشارب، مختلف المسالك، وقد يشتمل على من لا يعرفهم ولا يعرفونه.

ثم هو يتقدم إليهم موجهاً ومرشداً وقد يكون آمراً ناهياً، فعليه أن يستميلهم إلى جانبه ويقنعهم بمذهبه ويقودهم إلى مسلكه.

وقد تكون الفكرة جديدة عليهم، أو ثقيلة على نفوسهم، مما يؤدي إلى تردد أو امتناع، ومن ثم فعليه أن يروض نفوسهم وإن كانت جامحة، ويقنع أذهانهم وإن كانت معاندة، فيصبح قائداً للجماهير الأبية، ومحققاً لرغباته من كافة سامعيه، على اختلاف وجهاتهم، وليس هذا بالأمر الهيِّن، فقد يقدر الإنسان على ترويض الوحوش الكاسرة وتذليل الحيوانات النافرة، ويعجز عن استمالة بعض النفوس، لأنها فوق هذا وذاك كما شبههم عمر ﷺ: الناس كجمل أنِف.

ولعل من جميع ما تقدم من تعريف الخطابة، ونشأتها، وخصائصها، تكون قد ظهرت لنا أهميةُ الخطابة وآثارها، ووجوب العناية بها.

أهمية الخَطابة وآثارها

تعتبر الخطابة أثراً من آثار الرقي الإنساني ومظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي، ولهذا عني بها كل شعب، واهتمت بها كل الأمم في كل زمان ومكان، واتخذتها أداة لتوجيه الجماعات، وإصلاح المجتمعات.

وقد كان للعرب في ذلك الحظ الأوفى، فحفلوا بها في الجاهلية، وساعد عليها وجود عدة أسباب اجتماعية أدت إلى ازدهارها ورفعة شأنها، فوصلت إلى القمة وتوجت بالشرف والاعتزاز. من تلك الأسباب ما يأتي:

١ ـ طبيعة مواضيع الخطابة: وهي إما حث على حرب، أو حض على سلم، وبطبيعة الحال لا يتعرض لهذه المواضيع إلّا من كان سيداً مطاعاً لأنه الذي يُسمَعُ قولُه ويُطاعُ أمرُه في مثل تلك المواقف، وهو الذي يملك إعلان الحرب وقبول الصلح.

٢ ـ التهاني أو التعازي، وإذا أرادت قبيلة أن تهنئ قبيلة أخرى بمكرمة، كظهور فارس أو نبوغ شاعر أو غير ذلك، فإنها ستوفد من طرفها من يؤدي ذلك عنها، وبطبيعة الحال أيضاً لن تختار إلا من أشرافها ليمثلوها ويعبروا عنها.

٣ ـ المفاخرات والمنافرات. ومن عادة هذين الغرضين ألا يقعان إلا بين قبيلين عظيمين يرى كل قبيل منهما أنه أعلى وأعظم من القبيل الآخر فيرفع من شأنه ويحط من قدر من يقابله. وعليه فلن يتقدم لتعداد المفاخر إلا الفضلاء. كل ذلك يجعل مهمة الخطابة فاضلة نبيلة، ويرفعها إلى المكانة العالية.

ثانياً: ما حدث للشعر من ابتذال وتدن بناء على الأسباب الآتية:

١ ـ وجود بعض المتكسبين به مما يلحق جنسه عيب التكسب به، وإذا ما عيب الشعر بالتكسب، وسلمت الخطابة من ذلك، كان رفعة لشأن الخطابة برفعة شأن الخطباء.

٢ ـ الشعر من حيث هو عند القائلين له سليقة ميسرة للصغير والكبير والشريف والدنيء، والرفيع والوضيع، بل والرجال والنساء، بينما الخطابة لا تسند إلا للسادة والنبلاء.

٣ ـ إن الشعر من حيث الموضوع يتناول الجد والهزل، فيكون في الغزل وفي اللهو والطرب والتشبيب والنسيب والمجون، وفيه الصدق والكذب، وقد يكون أعذبه أكذبه.

بينما مواضيع الخطابة، كما علمنا، لا تنزل إلى تلك المستويات الاجتماعية ولم تسند إلى تلك الطبقات الشعبية،

بل كانت لمهام الأمور يقوم بها أشراف الناس. ومن هنا عني بها السادة واهتم لها الأشراف. من ذلك:

أ ـ قول قيس بن سنان المنقري التميمي ﷺ وكان سيداً في قومه:

إنــي امــرؤ لا يــعــتــري خُــلــقــي
دنــس يــفــنــده ولا أفَــن
مــن مــنــقــر فــي بــيــت مــكــرمــة
والــغــصــن يــنــبــت حــولــه الــغــصــن
خــطــبــاء حــيــن يــقــول قــائــلــهــم
بــيــض الــوجــوه أعــفــة لــســن
لا يــفــطــنــون لــعــيــب جــارهــم
وهــم لــحــســن جــوارهــم فُــطــن

فقد جعل الخطابة واللسن مع العفة وطهارة الخلق من الدنس كما جعلها لبيض الوجوه في بيت المكرمات وهذا القائل بنفسه سيد في قومه كما قيل في رثائه:

فــمــا كــان قــيــس هُــلْــكُــه هُــلْــكُ واحــد
ولــكــنــه بــنــيــان قــوم تــهــدَّمــا

ب ـ ومن ذلك قول عمرو بن الإطنابة في أبيات له:

إنــي مــن الــذيــن إذا انــتــدوا
بــدؤوا بــحــق الله ثــم الــنــائــل

إلى قوله:

والـقـاتـلـيـن لـدى الـوغـى أقـرانـهـم
إن الـمـنـيـة مـن وراء الـوائـل
والـقـائـلـيـن فـلا يـعـاب كـلامـهـم
يـوم الـمـقـامـة بـالـمـقـال الـفـاصـل

فقد جعل كلامهم الفاصل السالم من العيب بجوار قتل الأقران يوم الوغى.

إلى غير ذلك من العناية والحفاوة بالخطابة وإكبار أهلها وارتفاع شأنهم.

وقد كانوا كذلك يُعَوِّلون عليها في أشد المواقف خطورة كما فعل هانئ بن قبيصة يوم ذي قار من تحريض بني بكر على القتال وكان لهم النصر على الفرس، وعنه تطاول فخرهم كما قال الشاعر:

ولـو أن كـل مـعـدٍّ كـان شـاركـنـا
يـوم ذي قـار مـا أخـطـاهـم الـشـرف

عناية الإسلام بالخطابة:

ثم جاء الإسلام فكانت عنايته بها أشد واهتمامه بها أقوى، كيف لا ورسالته كلها مبناها على وحي يوحى وقرآن يتلى وقراءته عبادة. وكانت كبرى المعجزات إنما هي فصاحة وبلاغة. تحدث الفصحاء والبلغاء في صميم لغتهم وفي عقر ديارهم، فتراجع أمامها فرسان البلاغة، وتراجع دونها أئمة البيان، واستسلموا لسلطانها وسجدوا لسحر بيانها. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ

أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ . . .﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد نوه القرآن الكريم عن مدى عظم الخطابة والبيان وصلتهما بالرسالات والدعاة في غير ما موطن. فعن أصل الرسالة يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي البيان الذي يصحبه الإقناع ويثمر الاستجابة كما عاب العجز عن الإبانة في مقام الخصومة وإثبات الحجة في قوله تعالى عن النساء: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]، أي لعجزهن عن مواجهة الخصم وإقامة الحجة.

ونوه عن مساندتها للرسالة في قصة بعثة موسى عليه السلام ومساندته بأخيه هارون كما في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٤، ٣٥]، فكانت فصاحة أخيه من عوامل ترشيحه للرسالة وشد عضد أخيه.

وفي مقدم وفد بني تميم على الرسول ﷺ صورة واضحة لعظم أثر الخطابة في الدعوة الإسلامية. وقد ساقها المفسرون والمؤرخون: أنهم قدموا عام الوفود واجتمع الناس في المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ ليخرج إليهم وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤].

فلما خرج إليهم قالوا: جئنا نفاخرك ونشاعرك بخطيبنا وشاعرنا، فقال ﷺ: **«ما بالشعر بُعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا»**.

فقال الزبرقان بن بدر لشاب: افخر واذكر فضل قومك، فقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن من خير أهل الأرض، من أكثرهم عدداً ومالاً وسلاحاً، فمن أنكر علينا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، وفعلٍ هو أحسن من فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس ـ وكان خطيبه ـ: **«قم فأجبه»**، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً وأعظمهم أحلاماً فأجابوه، والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه ووزراء رسوله، وعزاً لدينه فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قتلناه وكان غرمه علينا هيناً، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ثم قام شاعرهم فأنشد، ثم أجابه حسان رضي الله عنه. فقال الأقرع بن حابس ـ رئيس الوفد ـ: والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من رسول الله ﷺ

وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله[1].

ففي تلك الواقعة بالذات ومثيلاتها، تسجيل لأهمية الخطابة ودورها الفعال في خصوص الدعوة، حيث نلمس النقاط الآتية:

١ ـ تخصيص خطيب للرسول ﷺ، من قوله: فقال ﷺ لثابت بن قيس ـ وكان خطيبه ـ: **«مع أنه ﷺ أعطي جوامع الكلم وأفصح العرب والعجم»**.

٢ ـ كون الخطابة سلاحاً للدفاع عن الدعوة لقوله ﷺ لثابت: **«فأجبه»**. ومعلوم أن الإجابة دفاع كما قال حسان لأبي سفيان في أول الأمر: «هجوت محمداً فأجبت عنه»[2] فالإجابة دفاع عن النبي ﷺ.

٣ ـ أن قوة الخطابة مدعاة للإقناع والاستمالة، ومن ثم الاستجابة للدعوة، لقول الأقرع بن حابس بعد سماعه خطابة ثابت بن قيس وتأثره بها قال: والله ما أدري ما هذا الأمر، إلى أن قال: فكان خطيبهم أحسن قولاً، وكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً، ثم دنا من رسول الله ونطق بالشهادتين وأعلن إسلامه.

---

(١) قال السيوطي في الجامع الكبير (كنز العمال/٣٠٣١٦): [رواه] الروياني وابن منده وأبو نعيم وقال: غريب تفرد به المعلى بن عبد الرحمٰن بن الحكيم الواسطي. قال الدارقطني: هو كذاب. [ورواه] ابن عساكر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٠).

فكان للخطابة أعظم الأثر في الدفاع عن الإسلام، وفي الدعوة إليه.

وكذلك كان لها الحظ الأوفى في قتال الأعداء كما روى ابن إسحاق في غزوة بدر: ثم خرج رسول الله ﷺ فحرضهم على القتال وقال: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»، فكان لكلماته ﷺ أقوى تأثير على نفوسهم جعل أحد المقاتلين عمير بن الحمام يستعجل الموت، ويستطيل الحياة فيقول: بخ، بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، وكان بيده تمرات يأكلهن، فقذف بهن وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[1]، وبهذه الروح اندفع المؤمنون إلى قتال العدو ونصرهم الله تعالى. وهكذا كان في عهد الخلفاء والفتوحات الإسلامية؛ كانت الخطابة تسبق القتال، وكذلك في السلم فقد عُني بها كل العناية حتى أصبحت جزءاً من العبادة فنُصبت لها المنابر في المساجد وجُعلت في مقدمة الجمع والأعياد، واختص بها أفاضل الناس وأئمتهم في مهام الأمور، للأمر والنهي والتوجيه والبيان.

وكان ﷺ إذا أراد بيان أمر، أو جَدَّ جديد يحتاج إلى بيان، صعد المنبر وخطب الناس، كما في قصة بريرة لما

---

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة (سيرة ابن هشام ٢/٦٢٧) بدون إسناد، وأخرجه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس بن مالك.

اشترط أهلها على عائشة ﵂ أن تعتقها ويكون الولاء لهم، خطب رسول الله ﷺ وبيَّن أن كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل: الولاء لمن أعتق[1].

وقد كانت خطبته في حجة الوداع، خلاصة عامة جامعة شاملة لمهام الدين، وأسس التعامل، منها: «**أي يوم هذا في أي شهر هذا في أي بلد هذا**»، وفي كلها يجيبون بأنها أوقات وأماكن محرمة فيقول ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذه**»[2]، انظر إلى قوة التأكيد في التحريم، ثم يوصي بالنساء خيراً إلى غير ذلك مما اشتملت عليه من البيان والبلاغ في أعظم جمع للمسلمين.

وكذلك خطبته بعد صلاة الصبح إلى الظهر، ومن بعد صلاة الظهر إلى العصر، ومن بعد صلاة العصر إلى المغرب[3]، ما ترك شيئاً إلا وعرض له في مقامه ذلك، حفظ من حفظ ونسي من نسي[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
وأخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.
وأخرجه البخاري (١٧٤٢) من حديث ابن عمر.
وأخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١).

ثم من بعده خلفاؤه الراشدون ﷺ وفي أحرج المواقف وأخطرها كيوم وفاته ﷺ فذهل الكثيرون وأخذ الناس يدوكون وعمر يهدد من يقول: مات محمد.

وما كشف عن وجه الحقيقة المذهلة إلا أبو بكر ﷺ بخطبته على منبر رسول الله ﷺ بعد حمد الله والثناء عليه: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، فهدأت عاصفتهم وثاب إليهم رشدهم حتى قال عمر: والله لكأني لم أسمعها إلا الآن. وكأنها الآن أُنزلت[1].

ومثل ذلك يوم السقيفة، لما تنازع الناس أمر الخلافة، والتبس عليهم الموقف، وما أزال اللبس، ومهد الطريق، وثبّت الحق وجمع الشمل، إلا أبو بكر ﷺ بخطبته حين قدم عليهم ومعه عمر ﷺ وقد زوَّر كلمات يُلقيها، قال عمر: والله لقد أتى عليهن كلهن أبو بكر ﷺ.

وما أنهى أبو بكر ﷺ خطبته، حتى بويع بالخلافة، بدأه بها عمر، وتتابع عليه الحاضرون، وتمت له البيعة خليفةً لرسول الله ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٨).

وهكذا كل من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والولاة، إلى أواخر العصر العباسي، ظلت الخطابة موضع العناية وأداة التوجيه إلى أن أصيب العالم الإسلامي بما يسمى الانحطاط الأدبي، فأهملت الخطابة، واقتصرت على الجُمَع والأعياد، في شكليات وتقاليد حتى أصبحت خطبة الجمعة تعاد وتكرر في كل جمعة من موعدها في السنة التي تليها، ووضعت دواوين لهذا الغرض، وصارت مهمة الخطيب أن يتلو ما كتب غيره، فضعفت الملكات الخطابية وماتت القدرة الإنشائية.

إلى أن وجدت دعوات التحرر في كثير من البلاد الإسلامية ودعاة الإصلاح فحرروا الأفكار وهذبوا العقائد وتنشطت الأذهان بالدعوة أو مناقشتها فنشطت وانتعشت الحركة العلمية والأدبية، ونهضت الخطابة حين تنبهت الملكات.

والذي نشاهده اليوم، من الحركات الكلامية والمساجلات الخطابية، إنما هو أثر من آثار تلك النهضة وإن اختلفت مجالاتها.

والذي يهمنا كمسلمين أولاً وقبل كل شيء في مشارق الأرض ومغاربها، ودعاة إلى الله بوجه خاص، أن نعنى بالخطابة عناية فائقة، ولا سيما الخطابة الدينية على سعة مدلولها، من وعظ وإرشاد وتوجيه وتثقيف وبيان لتعاليم الإسلام في أصول الدين وفروعه ومحاسنه في العبادات

والمعاملات والاجتماعيات وكافة نظمه العامة والخاصة للأفراد والجماعات.

ولئن كانت هذه مهمة طلاب العلم في كل بلد وفي كل مدرسة أو جامعة، فإن مهمة طلاب الجامعة الإسلامية بالمدينة أعظم، وهي بهم ألصق، لما تتاح لهم فرصة اجتماع بكافة أبناء العالم الإسلامي في مواسم الحج سواء في مكة أو المدينة.

ولهذا وجب أن يُعنى بالخطابة والإنشاء والبحث والتوسع في هذا المجال فوق ما يتخيل للبعض، لأننا في أمس الحاجة إلى دعاة خطباء بلغاء، ولأننا نجزم بحاجة كل داعية إلى قوة الخطابة بالقدر الذي يُقنِع من يدعوهم أو يُتخذ خطيباً لبعض المواقف. وكذلك القائد مع جنده بالقدر الذي يبث فيهم روح الحماسة والشجاعة والتضحية.

ولا يتم ذلك لمن شاء النجاح فيها والوصول إلى غايته عن طريقها إلا عن طريق أسس الخطابة وعوامل قوتها ونجاحها.

دواعي قوة الخطابة

من أهم دواعي قوة الخطابة العوامل الآتية:

١ ـ قوة الخطيب.

٢ ـ أهمية الموضوع.

٣ ـ حسن الإعداد.

٤ ـ وجود الفرصة المناسبة زماناً ومكاناً.

٥ ـ توفر الحرية، والتطلع إلى مُثُل عليا في الحياة.

دواعي قوة الخطيب:

تنقسم دواعي قوة الخطيب إلى قسمين: أساسي وفرعي.

القسم الأساسي منها كالآتي:

١ ـ استعداده الفطري، ويمكن له أن يقوي هذا الاستعداد وينميه بالتدريب، وكثرة مزاولة الخطابة.

٢ ـ اللَّسَن والفصاحة: ومنه حسن المنطق، وصحة إظهار الحروف، ثم قوة التعبير، واختيار الألفاظ.

٣ ـ التزود بالعلوم من شتى الفنون. وهذا يساعده على الذي قبله ويمده في كل موقف وعلاج كل موضوع.

٤ ـ حضور البديهة: وهي التي تعينه على مواجهة الطوارئ حسب مقتضيات المواقف المختلفة.

٥ ـ معرفة نفسية السامعين، ليتجاوب معهم ما أمكن: ولهذا العنصر مدى أهميته لأنه مفتاح آذان السامعين، والنافذة التي ينفذ منها إلى القلوب.

٦ ـ العواطف الجياشة بمعاني الموضوع الذي تتناوله الخطبة، وإيمان الخطيب بفكرته، وثقته بنجاحه.

والعاطفة خاصة هي الطاقة التي تحركه، والقوة التي تدفعه، كما أن إيمان الخطيب بفكرته هو الأساس الذي يرتكز عليه، والدعامة التي يقوم عليها بين الجماهير، وثقته بالنجاح هي الرابطة بين موضوعه وشعور الجماهير.

أما العوامل الفرعية فهي عوامل شكلية تكسب الخطيب هيبة ووقاراً تدعم موقفه منها:

١ ـ حسن سمته: مما يلفت الأنظار إليه ويعلي قدره قبل تحدثه.

٢ ـ روعة إلقائه: وتكييف نبرات صوته، وحسن جرسه مما يستولي على أسماع الحاضرين.

٣ ـ حسن إشاراته ومجيئها في مواضعها عند الحاجة.

٤ ـ إخلاصه، سمو أخلاقه، وحسن سيرته، وخاصة في الخطابة الدينية، وقد سمع الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ خطيباً، ولم يتأثر به فقال: يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي.

وأخيراً مراعاة كل ما يلزم قبل الإقدام على الخطابة.

عيوب الخطابة وما ينبغي للخطيب تجنبه:

تنقسم العيوب في الخطابة إلى قسمين:

١ ـ قسم خَلْقي في الخطيب يتعلق بالنطق، كاللُّثْغ، والفأفأة، والتأتأة.

أ ـ واللُّثْغُ: هو تغيير بعض الحروف كالراء ينطقها غيناً أو ياء أو بينهما، ويرى كبار العلماء أنه أخفها بل ويستعذبها بعض الناس ويعدها الجاحظ من محاسن النبلاء والأشراف. وواصل بن عطاء من كبار الخطباء وكان ألثغ في الراء فكان يحاول مجانبتها باستعمال كلمات خالية من الراء بدلاً مما هي فيها.

ومن طريف ما ينقل عنه في بشار بن بُرْد يردّ عليه قال: أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله أو في حفله. فتراه قد جانب الراء في (بشار)، وفي (المرعث) وفي (ابن برد) واستبدلها بأوصافه المشنف، أبي معاذ، واستعمل الملحد بدلاً من الكافر، واستعمل بعثت بدلاً من أرسلت، ويبعج بدلاً من يبقر، ومضجعه بدلاً من فراشه، ومنزله بدلاً من داره.

ومثل ذلك ما حكي من أن بعض الناس أراد إحراجه وهو يخطب فناوله ورقة مكتوب فيها:

أمر أمير المؤمنين بحفر بئر على قارعة الطريق ليرده الجائي والرائح.

فتناولها وعلم المقصود منها لكثرة الراء فيها. فقال: حكم الخليفة بشق جب على جانب السبيل ليتزود منه الجائي والغادي. ومثل ذلك وإن كان لا يخلو من الصنعة إلا أنه يعطي صورة لمحاولة تجنب اللثغة في الخطابة.

ب ـ والفأفأة: كثرة ظهور الفاء في الكلام لثقل في اللسان. ومثلها التأتأة وبعض الناس يظهر ذلك في نطقه العادي فإذا أخذ في الخطابة، قلَّ ظهوره في كلامه، إما لحماسه، أو لسرعة إلقائه، أو لشدة عنايته.

٢ ـ وقسم عارض أثناء الخطابة: كالحصر، والإعياء، والاستعانة.

أما الحصر: وهو احتباس اللسان عن الكلام. فقد يطرأ على الخطيب بسبب الدهشة مما يفجأ نظره أو سمعه أو بالحيرة مما يواجهه أو يتوهمه. قال أبو هلال العسكري: الحيرة والدهشة، يورثان الحبسة والحصر. وهذا من أخطر المواقف على الخطيب، سرعان ما تظهر آثاره على وجهه، فيشحب لونه، ويتصبب عرقه، ويجف ريقه، وربما دارت رأسه، وطنت أذنه، وخارت قواه، وقل أن يوجد لهذه الأزمة حلاً إلا جلَدَ الخطيب وقوة شخصيته، وخير وسيلة لتدارك موقفه، إما بالجلوس وتناول شيء من الماء، أو طلبه إن لم يكن موجوداً، ولو لم تكن لديه شدة حاجة. وإما بتناوله كتاباً أو جريدة أو أوراقاً يقلب صفحاتها، أو قلماً يتأمل فيه، أو أي

شيء يتشاغل به نسبياً، حتى تذهب عنه الدهشةُ، وهو في أثناء ذلك يعالج بفكره افتتاح الكلام، ولو أن يقرأ فاتحة الكتاب. ومن هنا كانت قوة شخصية الخطيب وإعداده للخطبة أقوى عدة لنجاح الخطابة.

وقد يُسعف الخطيب عبارة موجزة تغطي الموقف فيكتفي بها وكأنه ما أراد إلا هي فيحسن التخلص من المأزق بها.

صور من ذلك:

١ ـ في أول خلافة عثمان ﷺ صعد المنبر ليخطب الناس فأرتج عليه فقال: أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد العسر يسراً[١]. (هكذا يروي علماء الأدب. وابن كثير يقول: لم أجد ذلك بسند تسكن النفس إليه)[٢].

٢ ـ ما ينقل عن ثابت بن قطنة على منبر سجستان يوم الجمعة وقد أحصر فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال.

فإن لا أكن فيكم خطيباً فإنني
بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٦٢)، وضعفه مشهور سلمان في كتابه (قصص لا تثبت ٢/ ٧٢) بأن في إسناده الواقدي وهو متروك.

(٢) البداية (٧/ ١٤٨). (حاشية في الأصل).

فكان اعتذاره أبلغ من خطابة غيره، حتى قال خالد بن صفوان لما بلغه خبره: والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه.

٣ ـ وقال المبرد: حُدِّثت أن أبا بكر ﷺ، ولّى يزيد بن أبي سفيان ربعاً من أرباع الشام، فرقي المنبر فتكلم فأرتج عليه فاستأنف فأرتج عليه فقطع الخطبة فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال. فبلغ كلامه عمرو بن العاص فقال: هن مُخرجاتي من الشام، استحساناً لكلامه.

٤ ـ وقد يسعف الخطيب نفسه بحسن تصرفه في مال أو نحوه كما فعل عبد الله بن عامر بالبصرة لما أرتج عليه يوم العيد فقال: والله لا أجمع عليكم عياً ولؤماً، من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ.

وعلى الخطيب أن يحتال ليخلص نفسه ولا يرمي بما يجري على لسانه بدون أن يزنه فقد يوقع نفسه في أسوأ مما هو فيه، كما وقع من مصعب بن حيان، دُعي ليخطب في نكاح فأرتج عليه فقال: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله. فقالت أم الجارية: عجَّل الله موتَكَ، ألهذا دعوناك.

وقريب منه ما وقع لعبد الله العشري لما أرتج عليه وهو على المنبر فقال: أطعموني ماء، فغُيِّر بذلك لاستعماله أطعموني بدل اسقوني.

أما الاستعانة فهي: ما يتحيل به الخطيب لاستجداء فكره وكلامه. وقد يصبح عادة وهو لا يدري.

من ذلك أن يعبث بأصابعه أو مسبحته أو أنفه أو لحيته أو عمامته... إلخ. أو أن يأتي بعبارات ليست ذات معنى جديد، إما إعادة لعبارات مضت أو قوله لمثل: علمتم أيها الناس، اسمعوا ما أقول، أفهمتهم ما مضى. قال رجل للعتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حبسة، ولا استعانة. فهو بليغ، قال: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني، واستمع إليّ.

قال المبرد (١/١٩): أما ما ذكرناه من الاستعانة فهو: أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحح به نظماً أو وزناً إن كان في شعر، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور، كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم: ألست تسمع، أفهمت، أين أنت. وما أشبه هذا، وربما تشاغل العيي بفتل أصابعه، ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح، وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء:

مليء ببهر والتفات وسعلة
ومسحة عثنون وفتل الأصابع

وقال رجل من الخوارج يصف خطيباً منهم بالجبن وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله:

نحنح زيد وسعل
لما رأى وقع الأسل
ويلمه إذا ارتجل
ثم أطال واحتفل

قوله: ويلمه، أي ويل لأمه عبارة تعجّب، أي إذا ارتجل كان فصيحاً أطال واحتفل ولكنه نحنح وسعل لما رأى وقع السلاح.

وقد يتعود الخطيب بعض تلك الأشياء، فتصبح ملازمة له بدون حاجة، فليحذر المتكلم التعود عليها.

وأحسن طريق لتجنب هذه العيوب، هو حسن التحضير، والإيجاز في التعبير، والتمهل في الإلقاء، حتى يكون كلامه بقدر ما يسعفه تفكيره.

ما يلزم إعداده للخطبة قبل إلقائها:

يلزم للخطبة قبل إلقائها الخطوات الآتية:

١ ـ الإعداد لها من تحضير مواد أساسية لموضوعها.

٢ ـ التخطيط لإلقائها وترتيب نصوصها لحسن عرض موضوعها.

٣ ـ تقسيمها في بنائها إلى مقدمة، وموضوع، وخاتمة.

التحضير للخطابة

تعتبر الخطابة كأي صناعة فنية، والخطبة في ذاتها تعتبر في وجودها كأي كائن فني له عوامل إيجاد تسبق وجوده، وهي

في نظري أشبه ما تكون ببناء بيت ثابت الأركان محدد الجوانب، كما قاسوا بيت الشِعْر ببيت الشَعَر، تماماً بتمام. وعليه، فكما أن إقامة بيت للسكنى يحتاج إلى تحضير سابق يبدأ من اختيار المكان ثم تجهيز المواد الأساسية ثم الزمن الملائم لبدء البناء.

فهكذا التحضير للخطبة لا بد من اختيار المكان أو مراعاة ملائماته، ومثله الزمان كذلك. أما المواد فلا بد من استحضارها وهي النصوص والشواهد والأدلة فمثلاً يريد الحديث عن الاستقامة: فعليه أن يستحضر أولاً وقبل كل شيء النصوص التي لها صلة بالموضوع كقوله ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[1]، وقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مستقيماً ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، وخط يمينه وشماله خطوطاً ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[1].

التخطيط للخطبة

فإذا استكمل استحضار تلك النصوص وما يماثلها لأي موضوع، بدأ يفكر ويخطط ويرتب ويختار بأي هذه النصوص يبدأ كلامه؟ وأيها يكون ختامه؟ وأيها يكون كأصل؟ وأيها يكون كالمتمم والمبين؟ وهذا التخطيط لغرض النصوص هو كالتخطيط تماماً لإقامة البيت، أين يكون مدخله وأركانه ومجالسه ونوافذه؟ فكما أن تخطيط الأرض للبناء، يحدد معالمها، ويسهل بناءها، فكذلك التخطيط للخطبة، يساعد على حسن تنسيقها، وقوة عرضها، وسهولة فهمها للسامعين.

تطبيق ذلك على ما تقدم من نصوص الاستقامة:

١ ـ لو اعتبرنا آية الاستقامة هي أساس في الموضوع وقدمناها وتكلمنا على أولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وبينا معاني الربوبية وتوحيد الربوبية كاملاً قدر الإمكان، ثم انتقلنا إلى ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فجعلناها مجملة، وقلنا: إن معنى الاستقامة هنا عام يحتاج إلى تفسير كما في الحديث: «**قل**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥ و٤٦٥)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).

آمنت بالله ثم استقم»[1]، وجعلنا قوله ﷺ: «قل آمنت بالله»، مثل مقدمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فتكلمنا أيضاً على معنى آمنت بالله وجئنا بمعاني توحيد الألوهية، وبمقدمة كل من الحديث والآية وجدنا مناسبة للكلام على قسمي التوحيد وليكن بالقدر الذي يجعله كأساس للاستقامة مبتدئاً من العقيدة.

٢ ـ ثم نأتي إلى الاستقامة كما قلنا فنجدها عامة وفي حاجة إلى بيان فنأخذ الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

فستجد مطلع الآيات متفقاً مع ما قبله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

شَيْـًٔا﴾ فتشير إلى هذا الربط وهذه المشاركة بدون إطالة وإعادة مملة، ثم تمضي تعدد الأوامر والنواهي المذكورة كلها وتبين شمولها لشتى مرافق الحياة وتنبه على أن هذا هو تفسير الاستقامة المجملة في تلك النصوص مستشهداً بنهاية الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي المذكورات ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وأن ما عداها سبل ضلال. ونأتي بالحديث: «**خط لنا خطاً**»!!... إلخ مبيناً خطر السبل الأخرى.

٣ ـ ثم تشير إلى عناية الإسلام بالاستقامة وعظم شأنها بما تعبدنا الله تعالى من سؤالها في آية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ...﴾ إلى آخر السورة.

٤ ـ ثم تعود إلى نهاية آية الاستقامة التي بدأت بها مبيناً ما أعد الله للمستقيمين من حسن الجزاء معجلاً في الدنيا ومؤجلاً في الآخرة.

أ ـ ففي الدنيا: تنزل عليهم الملائكة عند النزع ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ب ـ وفي الآخرة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

تنبيهان:

الأول: يلاحظ عند عرض جزئيات الآية السابقة **ضرورة مراعاة الزمن وظروف السامعين** فيمكن له أن يطيل في بعض

النقاط ويقتصر في بعضها الآخر حسب ما يلحظه في مجتمع السامعين.

الثاني: إن عمل التخطيط المشار إليه من الأهمية بمكان، كما يُفهم من تصريح عمر ﷺ يوم السقيفة حيث قال: «لقد زوَّرت كلمات أعجبتني»، أي حضَّرتها وأعددتها، فقال لي أبو بكر: على رِسلك يا عمر، فوالله لقد جاء عليها كلها[1]. فهذا عمر الملهم، وعمر سفير قريش في الجاهلية. سفير في الجاهلية وملهم ومحدث في الإسلام، يزوِّر[2] كلمات يواجه بها الموقف. فمن لم يبال بهذا العمل فإنه لا يسلم من الفشل. وقد قال الجاحظ: إنما يجترئ على الخطبة الغِرُّ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره.

وقال بشار يصف جلة من الخطباء، واصل بن عطاء، وخالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بقوله:

تكلفوا القول والأقوامُ قد حفلوا
وحبَّروا خطباً ناهيك من خطب

فنص على عنايتهم بخطبهم وتحضيرهم إياها إلى حد التكلف، والتحبير أي التجويد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠).

(٢) زَوَّر الشيء تزويراً: حَسَّنه وقَوَّمَه. (حاشية في الأصل).

هذه نبذة من عناية الخطيب بخطبته وتحضيره موادها وتخطيطه لموضوعها، والموضوع جزء أساسي منها حيث أنها تبنى من أجزاء ثلاثة كالآتي، يتوقف على ترتيبها حسن نتائجها.

أجزاء الخطبة

اتفق علماء البيان وفن الخطابة، على أن الخطبة تبنى من أجزاء ثلاثة هي:

١ ـ المقدمة، ٢ ـ الموضوع، ٣ ـ الخاتمة.

ولكل جزء منها أهميته ومساهمته في إنجاحها.

١ ـ المقدمة

هي عبارة عما يستهلُّ الخطيب كلامه، وأول ما يطرق آذان السامعين بادئ ذي بدء؛ فتنفتح له الآذان، وتتهيأ به الأذهان، فينتقل السامع بمقتضاه من جو اللامبالاة، إلى الاعتناء والانتباه، فيستيقظ شعوره لما سيلقى عليه. وكان يعمد الشعراء إلى الغزل في مطلع القصيدة لهذا الغرض.

ومن هذا القبيل إيراد الرسول ﷺ السؤال على معاذ قبل أن يبين له: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**»[1]، ففيه توعية له وانتباه لأهمية ما سيلقى عليه، بل وتطلع لما كان منصرفاً عنه.

إلا أن مقدمة الخطبة ينبغي أن تشتمل على أكثر من ذلك، وهو أن تشير إلى ما له صلة بالموضوع، حتى ليكاد الفَطِن أن يدرك ما سيتحدث عنه الخطيب، وهو المسمى ببراعة الاستهلال.

أنواعها: إذا علمنا أن المقدمة للخطبة بمثابة المفتاح للقفل، حيث إنها تفتح الآذان وتنبه الشعور ليعي القلب ما

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٣٠).

سيلقى عليه، فمن الضروري تنوع المقدمات بتنوع المواضيع.

أ ـ فقد تُستهل بحمد الله تعالى والثناء عليه، وهو الكثير الغالب.

ب ـ وقد تُستهل بالترحم على عظيم، كخطبة علي ﷺ، يوم وفاة أبي بكر ﷺ، حيث وقف على الباب الذي فيه الصديق ﷺ فقال: يرحمك الله أبا بكر، كنتَ إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته، وموضع سره... واسترسل في تعداد مناقبه ﷺ فما قضى كلامه حتى أبكى الحاضرين وعلت أصواتهم. وقد فعل الحجاج لما مات ولده محمد وجاءه نعي أخيه محمد فقال: أيها الناس، محمدان في يوم واحد، وأما والله ما كنت أحسب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة. فقد بدأ باسمهما لعظيم فجيعته فيهما.

جـ ـ وقد تُبدأ ببيت شعر يتناسب مع موضوعها كما فعل الحجاج لما قدم العراق وصعد المنبر ضحوة نهار وصمت ساعة والناس ينظرونه وينتظرون ما يفعل حتى بدأهم بقوله:

أنـا ابـن جـلا وطـلّاع الـثـنـايـا

متـى أضـع الـعـمـامـة تـعـرفـونـي

وكما على الخطيب أن يولي مقدمته عنايته، وأن يتخير ما يناسب موضوعه فإنه يجب عليه ألا يطيل فيها ويفرغ جهده

في مقدمته. فيأتي إلى الموضوع الذي هو الأساس وقد أجهد فيقصر في عرضه، أو يكون السامع قد سئم فلا يستوعبه فتضيع الفائدة ولا تتحقق الغاية.

الاستغناء عن المقدمة: وقد يستوجب المقام ترك المقدمة بالكلية والاستغناء عنها في الحالات الآتية:

١ ـ إذا كان الموضوع واضحاً لا يحتاج إلى لفت الأنظار، أو كان سهلاً بسيطاً لا يستوجب شدة انتباه.

٢ ـ إذا كان الكلام في موضوع سبق أن تناوله متحدث قبله كالمشتركين في ندوة أو المتكلم الأول قدم للموضوع بما يكفي.

٣ ـ إذا كان الكلام عن جزئية في موضوع كتعليق على خطبة أو محاضرة أو نادي.

٤ ـ إذا كان الكلام في موضوع كثير التناول ولن يأتي المتحدث فيه بجديد.

٥ ـ إذا كان الوقت ضيقاً لا يتسع إلى مقدمة، والفرصة تفوت وتضيع الفائدة.

ففي هذه الحالات يعمد المتكلم إلى الموضوع مباشرة.

وقد يجتزئ الخطيب مقدمته ويأتي إلى الموضوع حالاً لخطورة الموقف، وشدة تطلع الحاضرين إلى الحقيقة المنتظرة، كما فعل الصديق ﷺ في خطبته عند وفاة الرسول ﷺ، حين كثر الكلام في المسجد واختلط الأمر على

الناس فاستنصت عمر فلم ينصت فتركه وصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت[1].

وفي مثل هذه الحالة يجب أن يدعم الخطيب كلامه بأقوى الأدلة المقنعة التي تثبت كلامه وتلزم السامعين به كما فعل الصديق ﷺ فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر السياق. فقد كان إلقاؤها عليهم آنذاك وحسن اختيارها بمثابة تجدد نزولها فما إن سمعها عمر حتى هوى إلى الأرض ما تقله رجلاه.

ومثلها خطبته ﷺ يوم بويع بالخلافة؛ حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني وليت عليكم ولست بأفضلكم، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ وعلمنا فعلمنا، إلى أن قال: أيها الناس أنا متبع ولست بمبتدع، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فردوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وكلما كانت المقدمة مسلَّمة منطقياً كلما كانت أقوى أثراً وأدعى إلزاماً، وهذا يتحتم في معرض الإنكار والمكابرة، كما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).

فعل النبي ﷺ عند بدء إعلان الدعوة؛ جمع قومه ثم قدم لهم بقوله بعد حمد الله والثناء عليه فقال: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم حقاً، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون...**» إلخ[1].

فقد اجتزأ ﷺ المقدمة لكنه أتى بها قضية مسلَّمة «**إن الرائد لا يكذب أهله**» وأكدها في خصوص موقفه معهم: «**والله، لو كذبت الناس ما كذبتكم**» مع أنه الصادق الأمين عندهم. ثم أتى موضوعه حالاً بإعلان رسالته إليهم وإلى الناس. ثم دعم مقالته ووعده بالبعث بصور مسلَّمة أيضاً لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون.

ومن هنا نعلم مدى أهمية المقدمة ومتى تجتزأ ومتى يمكن الاستغناء عنها وكيف نكيفها حسب الموقف. وهذا يرجع إلى تقدير الخطيب نفسه. للموقف الذي يواجهه والموضوع الذي سيلقيه ونفسيات السامعين الذين سيخاطبهم.

---

(١) ذكره ابن الأثير في الكامل في التاريخ (١/ ٥٨٤) فقال: وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، ولم يسق إسناداً.
قال الألباني في فقه السيرة (ص١٠٥): لم أجد في الرواة هذا الراوي وإنما فيهم «جعفر بن عبد الله بن الحكم» وهو أنصاري دوسي تابعي صغير يروي عن أنس والتابعين، فإذا كان هو هذا، فالإسناد مرسل ضعيف، ولم أقف على إسناده فيه، وإن كان غيره فلم أعرفه.

٢ ـ الموضوع

موضوع كل خطبة هو الجزء الرئيسي فيها، وهو المعنى الذي يعمد الخطيب إلى بيانه وهو الدافع له على أن يقوم خطيباً، كما في خطبته ﷺ يوم جمع قومه عند الصفا وخطبهم فقد بدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم أترون لو أني أنذرتكم جيشاً فقلت مسّاكم وصبّحكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: والله إني لرسول الله إليكم حقاً وإلى الناس أجمعين**»[1].

فموضوع الخطبة هو تبليغه ﷺ قومه أنه رسول الله إليهم. وما سبق هذا الجزء من المعاني إنما هو مقدمة يهيئ بها الأذهان ويستوثق بها منهم في صدق حديثه. فهو أمر جانبي بالنسبة إلى الموضوع ولهذا انفلت لسان أبي لهب وعبر عن سخطه: ألهذا جمعتنا؟!.. فموضوع الخطبة هو الذي أثار حميته وأنطقه بالسخط.

وكذلك موضوع خطبة الصديق ﷺ في المسجد يوم

---

(١) انظر تخريجه في الحاشية السابقة.

وفاة النبي ﷺ إنما هو إبلاغ الناس بحقيقة وفاة رسول الله ﷺ، وكل ما جاء قبلها فمقدمة.

وموضوع خطبته يوم السقيفة إنما هو اختيار الخليفة، وكل ما جاء قبلها فمقدمة لها، فالموضوع في الخطبة هو المقصود بالذات. ومن هنا عظمت أهميته واستوجب الاهتمام به.

أهم متطلبات الموضوع:

لكي ينجح الخطيب في تقديم موضوعه يجب عليه الاهتمام بالآتي:

أولاً: وقبل كل شيء، اختياره اختياراً مناسباً للمقام، فلا يقدم موضوع حماسة وشجاعة عند تعزية في عزيز، ولا يقدم في معرض صلح بين متخاصمين موضوع حمية وعزة وإباء، بل في الأول يقدم عبارات الأسى والأسف والصبر. وفي الثاني موضوع العفو والإحسان والصفح والغفران... إلخ.

ثانياً: إفراد الموضوع، فلا يجمع بين عدة معان لعدة مواضيع في وقت واحد.

كما لو كان في موقف دعوة إلى صلح فيفرد موضوعه على طلب الصلح وقبوله ولا يُدخل في موضوعه أمور الصلح وما يصطلحون عليه ولا يقلب أسباب النزاع وغيرها.

ولا يمنعه في ذلك أن يعرض صوراً لنزاعات مماثلة اصطلح أهلها، وجنوا ثمار الصلح عاجلاً.

ويلاحظ أن بعض الأمور قد تشترك في أصل المعنى كموضوع تطفيف الكيل مع بخس الميزان فإنهما يشبهان الموضوع الواحد فلا مانع من جعلهما موضوعاً لخطبة واحدة.

وبجانب هذا أيضاً توجد معان متقاربة كالغش والتدليس في البيع فمن الممكن الإلمام بهما في موضوع تطفيف الكيل وبخس الوزن عَرَضاً لا قصداً. نظراً إلى اتحادهما في عموم الغبن في التعامل وإدخال الضرر على أحد المتعاملين. البائع والمشتري.

ولو أفرد كل منهما بخطبة تستوعب أطرافه وتلم بجزئياته وأنواع تفنن الناس في الغش عن طريقه وإيراد ما أمكن من نصوصه الخاصة به كان أولى وأجدى وأجمع لذهن السامع.

كذلك لا ينبغي للخطيب أن يجعل طول الخطبة وقصرها من مهام حسبانه بل المهم كل الأهمية إفهام السامعين وتأثرهم بموضوع الخطبة، وقد يكون قصرها أبلغ وأيسر كما قيل خير الكلام ما قل ودل. ومن وصايا الصديق ﷺ الإيجاز لأن طول الكلام ينسي بعضه بعضاً. ولا سيما إذا كانت الخطابة في الوعظ والإرشاد وبالأخص للجُمع.

وفي الحديث: «**إن طول صلاة الرجل وقِصَرَ خطبته مَئِنَّةٌ**[1]

---

(١) أي إن ذلك مما يعرف به فقه الرجل (النهاية لابن الأثير). (حاشية في الأصل).

من فِقْه الرجل فأقصروا الخطبةَ وأطيلوا الصلاةَ وإن من البيان سحراً». رواه مسلم وأبو داود[1].

وعليه فلا مانع من أن يقصر الخطيب موضوع خطبته على معنى واحد يستوفي الكلام عليه ولو كانت خطبته قصيرة.

وقد يعدد المتكلم مواضيع مختلفة في بعض المواقف، وهذا أشبه بالبيان والبلاغ منه بالخطابة كما في خطبته ﷺ في حجة الوداع وكخطب الساسة والزعماء في بيان أعمالهم ومنجزاتهم، أو عرض خطة سياستهم، وهذا بيان لا خطبة.

ثالثاً: الترتيب والتنسيق: وفق ما سبقت الإشارة إليه في الكلام على التخطيط للخطبة فيرتب موضوعه ترتيباً منسقاً متوالياً ولا يقطعه باستطرادات تبعد السامع عن مجال الفكرة الأساسية، وتقطع استرساله في التفكير مع الموضوع الأساسي.

رابعاً: تكييف الأسلوب حسب اقتدار السامعين على الفهم، وكلما كان واضحاً مبسطاً كان أفضل، ويزيده وضوحاً إيراد الأمثلة والاستشهاد بالأدلة.

خامساً: التدليل وإيراد الأدلة من أقوى عوامل الإقناع وسياقها يحتاج إلى ترتيب خاص وهو أن يوردها في مناسباتها ومتفاوتة وتدريجياً يتدرج بها تدرجاً تصاعدياً يبدأها بالضعيف

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٩)، وأخرجه أبو داود (١١٠٦) مختصراً.

ويختمها بالأقوى، ليكون إيراد الدليل الضعيف أولاً بمثابة إيجاده انتباه وتفكر، ثم يأتي الدليل الذي بعده قوياً فيوجد تفكيراً وترداداً. ثم يأتي الدليل الأخير أقوى ليكون مقنعاً قاطعاً التردد وجازماً بالمطلوب. كما في نصوص الخمر مثلاً[1].

وتعتبر الأدلة في الخطابة قسمين:

أ ـ أدلة منطقية: تقوم على ترتيب مقدمات تنتج قضايا مسلَّمة عقلاً، وهذه الأدلة لا تكون إلا في مستوى علمي وفي مواضيع علمية.

ب ـ أدلة خطابية ويمكن تقسيمها إلى نقلية وعاطفية.

فالنقلية: ما يكون من آية، أو حديث، أو حكمة مسلمة، أو كلام مشهور.

والعاطفية: ما كان مستنتجاً من شعور الناس وإحساسهم مما تعارفوا عليه وهذا القسم يحسن في المجالات العامة ويكون تأثيره أقوى على العوام، لأنه يثير شعورهم ويحرز إعجابهم ويسهل فهمه والتسليم به.

---

(١) بدأت أولاً بمقارنة بين إثمها ونفعها وترجيح الأول بدون نهي عنها. ثم جاء النهي عنها أوقات الصلاة فقط ليتعقلوها. فأوجد هذا تطلعاً لمصيرها وقال عمر ﷺ: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً.

ثم جاء أخيراً التحذير من وقيعة الشيطان بينهم بالبغضاء، وختم بالاستفهام التهديدي ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ حتى بادر عمر ﷺ فقال: انتهينا يا رب. (حاشية في الأصل).

وكذلك ما يأتي من الآيات والأحاديث مناسباً مع الموضوع وصريحاً فيه.

تنبيه: قد يعمد بعض الخطباء إلى أدلة سفسطائية بقصد التمويه إذا كانت له حاجة كخطباء اللجان العامة أو السياسيين الذين يخططون للجماهير تخطيطاً مغايراً لما هم عليه ويريد أن يستميل العامة إلى جانبه. وكما يفعل المرشحون للانتخابات في البلاد النيابية. وهنا يجد الخطيب نفسه وسط وعود كاذبة والتزامات خيالية. وهذا النوع وإن أكسبه عدداً من العوام إلا أنه يفقده ثقة الجميع فيما بعد.

وعليه ينبغي على الخطيب أن لا يسرف في الوعود الكبيرة، ولا يمعن في مقام الزجر بإيراد النصوص التي هي الغاية في الوعيد، ولا يسمح لنفسه أن يورد كل ما سمع من أوصاف الهول والشدائد، رغبة في قمع النفوس، لأن الأذهان مهما كانت ستقيسها بما تستطيع تصوره، فقد يكون الإمعان في التهويل مدعاة للتشكك فيما يسمعون. وكما في الأثر: «حدثوا الناس بما يعقلون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) من قول علي ﷺ.

٣ ـ الخاتمة

خاتمة الخطبة عبارة عن خلاصتها يوجز فيها ما مضى ويستخلص فيها نتيجة ما قدم. وهي الطرف المقابل للمقدمة فكما أن المقدمة تنبه ذهن السامع للموضوع فالخاتمة تنهي أفكار السامع بخلاصة الموضوع كي تظل تلك الخلاصة ذات أثر في ذهنه يرن صداها في أذنه وتتراءى معانيها في مخيلته وتتردد عباراتها على لسانه.

ومن هنا وجب ألا تكون محل شرح أو نقاش أو تدليل بل تكون محض خلاصة؛ لو أراد السامع أن يعرضها على غيره سهل عليه ذلك؛ ولو أراد أن يصدر حكمه بناه عليها واستخلصه منها.

وبها يحصل الخطيب على مراده من الموضوع الذي عرضه فإن كان دعوة إلى مشروع نال التأييد، وإن كان وعظاً عاماً استمال القلوب، وإن كان تهنئة بجديد شاركه السامعون تهانيه، وإن كان تعزية في فقيد تجاوب معه السامعون في تعازيه، وهكذا في كل موقف مع الجماهير. ومن هنا تتنوع الخاتمة بتنوع المواضيع كما تنوعت المقدمة تماماً.

أنواع الخاتمة: كما تتنوع المقدمة حسب تنوع الموضوع

فتأتي ملائمة له مُهَيِّئَة الأذهان إليه؛ فكذلك الخاتمة تتنوع حسب تنوع الموضوع فتأتي مستجمعة لأطرافه يسترد الذهن شوارده ويستجمع الفكر فيها، فإن كان الموضوع توجيهياً، كانت الخاتمة خلاصة موجزة لأهم نقاط التوجيه، وإن كان الموضوع مثلاً تحذيراً عن تعاطي المسكرات فيجمع في الخاتمة عناوين عامة: **فيذكر تحريمها والوعيد عليها ومفاسدها على الفرد وعلى الجماعة أدبياً واقتصادياً**، ويذيلها بمثل قوله: فعلينا أن نصون أنفسنا ومجتمعنا من هذه المفاسد، وبالله التوفيق.

نماذج خطابية للدراسة والتحليل

اشتملت على التقسيم السابق للخطبة

أولاً: من العصر الجاهلي

١ ـ خطبة في الرثاء:

خطب المهلب بن عوف يعزي الملك سلامة بن فاتش في ولد كان يرشحه لمنصبه فقال: أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت وتحلي لتمُر. وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطأتك جَلَلٌ ما لم تُدنِ الأجل، وتقطعِ الأمل، وإن حادثاً ألمَّ بِكَ فاستبدَّ بأقلك وصفح عن أكثرك لمَن أجلٌ النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباءُ من رُزِئَ فصبر، وأصيب فاغتفر، إذا كان سوى فيما يرتقب ويحذر، فاستشعر اليأس عما فات، إذ كان ارتجاعه ممتنعاً، ومرامه مستصعباً فلشيء ما ضربت الأسى، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر بها العزاء في عزيز.

ثانياً ـ جوُّها: لقد قيلت لملك أصيب في أعز أبنائه اشتد حزنه عليه حتى اقتصر عن الناس فالموقف رهيب والجو معتم قاتم.

ثالثاً ـ العرض: نلحظ حسن عرض الخطيب، وحسن تصرفه، ولطف مدخله، وسلامة تقسيمه.

أ ـ بدأ بمقدمة تلفت النظر وتفتح الآذان، وتنبه الشعور، حين بدأ بقوله: أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، فوصف الدنيا بصفات مسلَّمة وقضايا واقعية، أمس ما تكون بموضوع التعزية، وجمع بين متقابلات أصدق تصويراً لموضوع العزاء كذلك «تجود: تسلب»، «تعطي: تأخذ»، «تجمع: تشتت»، «تحلي: تمر» مما يوطنه القلب لاستقبال الأحداث وتحمل الحوادث.

ثم دخل إلى الموضوع بمدخل لطيف، فقال: وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من استرداد الموهوب فهذا الجزء من الخطبة، وإن كان مفهوماً ضمن عمومات لتسلب، ولتأخذ، ولتشتت إلا أنها هناك قضايا عامة تتصل بالموضوع من بعيد، وهنا قضية خاصة تقترب من الموضوع بلطف، ويشير إلى الأحزان وأسبابها.

الموضوع: ثم أتى الموضوع بقوله: وكل مصيبة تخطأتك جلل ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادثاً ألمّ بك فاستبد بأقلك، وصفح عن أكثرك لمن أجلٌ النعم عليك.

فقد قارن له بين مصابه في ولده، ومصاب الناس في شخصه، فكان مصابه في ولده مصيبة، وسلامة شخصه نعمة، ويهون المصاب عليه، ثم أخذ يواسيه بذكر نماذج وأمثلة.

فعرض عليه من أصيب بمصابه ليتأسى بهم فقال: وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر، وأصيب فاغتفر، وفي هذا كله عزاء وتسلية كما أشار القرآن الكريم بقصص الأنبياء عزاءً للرسول ﷺ وتأسّياً بالمرسلين السابقين مع أممهم.

الخاتمة: ثم انتهى إلى خاتمة تعتبر كنتيجة لمقدمة مسلمة فقال: فاستشعر اليأس عما فات، ثم أتاه بدليل ملزم إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ومرامه مستعصياً، وأنهاه إلى ما يفزع إليه أولو الألباب من حسن العزاء. (فلشيء ما ضربت الأسى وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء).

تراه قدم لموضوعه بوصف الدنيا بقضايا مسلَّمة، ثم دخل إلى الموضوع برفق ثم تلطف في عرضه للموضوع، وعقد المقارنة بين ما يهون الأمر، ثم ألزمه العزاء بصور الماضين وبهذا وصل إلى مطلوبه ونجح في مهمته وخرج الملك من عزلته وخالط الناس.

٢ ـ نموذج في خِطبة نكاح:

من أمثل الخطب في النكاح خطبة أبي طالب في زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة، ولا يخلو منها كتاب أدب. قال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل،

وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجَعَلَنَا الحكامَ على الناس، ثم إن محمدَ بنَ عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المالَ ظلٌّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجَعةٌ، وله في خديجةَ بنتِ خويلدٍ رغبةٌ، ولها فيه مثلُ ذلك وما أحببتم من الصداق فَعَليَّ.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر فيه طلب النكاح من كريم إلى فاضلة.

ثانياً ـ جوُّها: لقد قيلت في خِطبة نكاح سيد قومه، ومن وُصف برجاحته بِراً وعقلاً وفضلاً وكرماً، من سيدة فاضلة من فضليات نساءِ قومها، فالموقف باسم والجو مشرق.

ثالثاً ـ العرض: لقد جاءت حديثَ شكر، واعترافاً بفضل، واعتزازاً بأصل، أجاد عرضَها، وأحسن تقسيمَها.

ابتدأ مقدمتها بحمد الله والثناء عليه مع بيان موجبات ذلك، متضمناً عراقة الأصل وبعد المنزلة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وفي ذكر الذرية والزرع، إثارةُ الشعور وانتباه الذهن إلى اتجاه الموضوع، ومدى ارتباط النكاح بالذرية، والذرية بالزرع.

ثم جاء حسن الانتقال إلى حاضرهم في بلد حرام، وحول بيت محجوج في ملك أصيل مما يعلي شأنهم ويبين

رفيع منزلتهم، مما يتناسب وموقف الخاطب بعرض ما يرغب فيه من مصاهرة أمثاله.

الموضوع: ومن هذا كله إلى الموضوع، ثم إن محمد بن عبد الله، وهو المعروف لديهم بشخصه ونسبه، ثم وصفه بصفات المعاني المحمودة، وقارن بينه وبين جميع فتيان قريش، ورجحه عليهم، مما يقوي الرغبة فيه، ويسرع بالاستجابة إليه. «وله في خديجة بنت خويلد رغبة»، تعبير لطيف وأسلوب رفيع يحفظ الكرامة ويصون المروءة، «ولها فيه مثل ذلك» تقابل مقبول ورغبة متبادلة، يمنع التردد في الإجابة.

إن مما يستلفت النظر ما علم من أن خديجة ﵂ هي التي رغبت إليه وارتضته لنفسها، ولم نجد لسبق الرغبة هنا أثراً في هذه الخطبة. مما يعطينا صورة عن مقام الخطبة في النكاح أنها عامل تكريم، وكرامة المرأة في تمنُّعها وإبائها، وكرامة الرجل في تقدمه وإغلاء مطلوبه عنده، ولذا بدأ أبو طالب في تقديم إعلان رغبة محمد قبل رغبة خديجة. ثم أعلن استعداده لما أحبوا من الصداق فقال: وما أحببتم من الصداق فَعَلَيّ. فكان هذا العرض كالخاتمة، يشعر بأنهم قد استجابوا بالفعل وكأنه لم يبق إلا الصداق.

وقد اعتذر عن قلة مال ابن أخيه وتحمل عنه الصداق ولم يقصر لهذا السبب بل جعله وفق محبتهم هم لا مماكسة ولا مشارطة.

الخاتمة: ويمكن أن يقال: إن خاتمة هذه الخطبة مقتضبة. وهو كذلك لأن الغرض من الخاتمة إنما هو تلخيص ما سبق من عرض الموضوع ليلم به السامع في إيجاز.

وهنا لا حاجة إلى إلمام ولا إلى إيجاز لأن الغرض معروف والنتيجة واضحة، ولكأنه أشار إليها بأنها حاصلة ومنتهية، بأنهم أجابوا وتم الرضا والقبول لمجرد عرض الخطبة. ولذا بادر بالصداق مع أنه من المتعارف أنه لا يذكر الصداق إلا بعد إعلان الرضا والقبول. وهو هنا شعر بها واطمأن إلى إجابتهم، وبهذا الاطمئنان تنتهي المهمة فلا حاجة إلى خاتمة تستوعب ما فات أو توجزه لسامع ما دامت المهمة قد تمت وحصل القبول والموافقة. ولذا بادرهم بالصداق كما يحبون.

ومن هنا نعلم أنه كما يمكن في بعض الحالات ترك المقدمة أو إيجازها لوجود ما يغني عنها أو لضيق الوقت، فكذلك الخاتمة قد تترك أو توجز لانتهاء المهمة وحصول المطلوب.

بل قد تترك الخطبة كلها إذا انتهت مهمتها كما في أمثلتهم: قطعت جهيزة قول كل خطيب.

٣ ـ نموذج في الحماسة والقتال:

خطب هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار ـ وكان من أهم أيام العرب في الجاهلية بين العرب والفرس، وقع

إبّان مبعث النبي ﷺ ـ وسبب ذلك اليوم أن كسرى حقد على النعمان بن المنذر لما حبس عدي بن زيد، وكان زيد من المقربين لدى كسرى، فاستدعى النعمان إليه، وقتله غدراً. وكان النعمان قد أودع سلاحه وابنته هندَ عند هانئ، فخشي كسرى أن يُستعمل هذا السلاح ضده، فطلبه من هانئ وشدد عليه، فرفض تسليمه وأبى عليه، فاشتعلت الحرب بينهما.

وعندئذٍ نسي العرب ما بينهم من خصومات وتجمعوا لحرب عدوهم من الفرس فاجتمعوا على ماء يسمى ذي قار قرب البصرة. فقام فيهم هانئ قائلاً:

«يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناجٍ فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبرَ من أسباب الظَّفَر، المنيةُ ولا الدَّنيَّةُ، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدباره، الطعن في ثُغَر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بُد».

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: ظاهر فيه الحث على القتال والدعوة إلى الثبات.

ثانياً ـ جوُّها: قد يكون هذا الموقف هو الأول من نوعه بالنسبة إلى العرب مع الفرس يلتقون وجهاً لوجه مع عدو أجنبي عنهم، طالما تطاول عليهم بماله وكاثرهم بعدده وتفوق

عليهم بعُدده، وكم اصطنع منهم عمالاً، ونصب فيهم ملوكاً يحكمونهم باسمه.

والآن يقفون معهم وجهاً لوجه وقفة الند للند، والكفء للكفء، فلا شك أن يكونوا متهيبين عدوهم متخوفين قتالهم، فالجو مخيف والموقف رهيب ينتابهم القلق وتساورهم المخاوف. فلا بد من استبسال واستماتة، وهذا يتطلب شجاعة وثباتاً وإقداماً، وإثارة الحمية والاعتزاز والإباء.

ثالثاً ـ العرض: بالنظر إلى خطورة الموقف، وضيق الوقت نجد الخطيب قد أجاد كل الإجادة في عرضه الخطبة عرضاً يتناسب مع الموقف والزمن.

أ ـ استهلها بتفخيم المخاطبين: «يا معشر بكر»، لأن لفظ المعشر لا يستعمل إلا للتفخيم وللأشراف، ولضيق الوقت عمد إلى الموضوع مباشرة، واكتفاء بما يمليه الموقف المتوتر، وبناء على تهيؤ الأذهان، واستيقاظ المشاعر والأحاسيس لجو القتال، ولذا عمد إلى صميم الموضوع بقوله: «هالك معذور خير من ناج فرور»، فجاء بمقارنة بين موقفين متقابلين: رجل قاتل حتى هلك بعذره، ورجل فر ونجا بفراره، فجعل الهلاك بعذر خيراً من النجاة بفرار، وهذا كاف للثبات في أرض القتال والصمود أمام العدو. «إن الحذر لا ينجي من القدر»، وهذا رد منطقي على مضمون ما عساه أن يخالج النفوس بالفرار حذر الموت، فيقول لهم: إن كان الفرار يقع حذراً من

الموت، فإن الحذر الذي يدفع صاحبه إلى الفرار لن ينجي من القدر، وفي هذا وَصْدٌ للباب أمام الفارين.

«وإن الصبر من أسباب الظفر»، إذا كان الحذر لا ينجي من القدر فلا داعي إلى الفرار ولا مناص من الصبر. فهنا جاء بيان نتائج هذا الصبر المنشود وأنه من أسباب الظفر الذي هو غاية مطلوبهم.

«المنية ولا الدنية»، رد على تساؤل أثارته الجملة السابقة لأن الصبر أمام العدو وإن كان من أسباب الظفر، فإنه مدعاة للموت، فأجاب حالاً بمقارنة أخرى بين الصبر والمنية، وبين الفرار والدنية فقال: المنية بسبب الصبر المطلوب، ولا الدنية بسبب الفرار المزعوم.

«استقبال الموت خير من استدباره»، توجيه بعد الإلزام، إذا كان الحذر لا ينجي من القدر، والمنية ولا الدنية، والموت لا مفر منه، فاستقباله خير من استدباره، فاستقباله بشجاعة وثبات، خير من استدباره في هزيمة وفرار.

«الطعن في ثُغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور» تصوير محسوس لمشاعر وأحاسيس نفسية في استقبال الموت أو استدباره، معان يتصورها الذهن فجاء قوله: «الطعن في ثغر النحور خير منه في الأعجاز والظهور» إبرازاً لتلك الصور الذهنية إلى مناظر حسية (ثغر نحور)، (أعجاز وظهور). فقد جعل استقبال الموت غاية في الشجاعة والثبات وعدم

المبالاة، ثغر يبتسم ووجه يتهلل. كأنما يستقبلون محبوباً طالت غيبته، وفي لفظه ثُغر جمع ثغر مجانسة لفظية بين ثغرة النحر وثغرة الفم.

وفي ذكره الأعجاز وإن كان يطلق على كل مؤخر من أي شيء إلا أنه بالعرف العام أصبح كالعَلَم على عجيزة المرأة، ففيه من التنفير والتقبيح ما يستحي الرجل من أن تكون إصابته في ظهره أو عجيزته بسبب فراره، فيحمله إباؤه على الإقدام، وتحميه أنفته من الفرار، فيحصل الصبر، وتتهيأ أسباب الظفر.

وبهذه المناسبة لعلنا بهذا العرض لهذه الخطبة الموجزة وبيان ترابط جملها، نلحظ قوة عرضها وقوة ترابطها ترابط النتائج بالمقدمات، مما يرد على نقاد الأدب في ادعائهم تفككه وتناثر جمله جاعلين من هذه الخطبة بالذات أقوى مثال يستدلون به.

ومن ناحية أخرى نلحظ جو هذه الخطبة وصورة عرضها وألفاظها وجملها مع الخطبة التي قبلها. فنجد كلاً منهما قد طابق مقامه وتلاءم مع جوِّه وناسب موضوعه إلى أبعد حد. فهناك في خطبة أبي طالب زواج وأفراح فكانت محامد لله وتعداد نعمه. وارتباط بإبراهيم وإسماعيل بزرع وغرس، وبيت محجوج وبذل من الصداق ما أحبوا. عبارات هادئة ومعان جميلة وألفاظ رشيقة، وكنايات سامية.

أما هنا: فقتال وطعان فجاءت ألفاظ عنيفة: هلاك، عذر، فرار، وطعن حذر، وقدر، منية ودنية، وجمل مقتضبة: الحذر لا ينجي من القدر، المنية ولا الدنية. مقابلات بين الجمل وكأنها كتائب جيش قابل بعضُها بعضاً للقتال، أو كتائبُ جيش تقتفي إثر كتائب.

فلا غَرْوَ أن تثير حميتهم وتشجع جبناءهم، وتدفع شجعانهم، فيكون لهم النصر ويسجل لهم الفخر، وقد أشادوا بذلك اليوم وتطاولوا به على طول الزمن.

فقال الأعشى يَفْتَخِرُ بذلك اليوم:

لـو أن كـل مـعـدٍّ كـان شـاركـنـا
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لـمـا أمـالـوا إلـى الـنـشـاب أيـديـهـم
ملنا ببيض لمثل الهام تختطف

إلى قوله:

مـا فـي الـخـدود صـدود عـن سـيـوفـهـم
ولا عـن الـطـعـن فـي الـلـبـات مـنـحـرف

وبالإمعان في قول الشاعر أخيراً:

ما في الخدود صدود عن سيوفهم، «ولا عن الطعن في اللبات منحرف» نجد تسجيلاً لآثار المقطع السابق في الخطبة «الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور»، وقد وقع من النفوس موقعه فاستجابوا له وحققوا مقصد الخطيب

منهم، فانطلقوا يستقبلون السيوف بالخدود بدون صدود عنها ويتلقون الطعن في اللَّبات ولم ينحرفوا عنه.

فكانت النتيجة: إثارة الحماس والتثبيت في الميدان، والشجاعة في القتال، وكان لهم النصر والغلبة.

٤ ـ نموذج في التفكر والاتعاظ:

خطب قَسّ بن ساعدة بسوق عكاظ فقال:

أيها الناس اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً.

ما بال الناس يذهبون ولا يَرْجِعون، أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضى له، وأرضى من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً ثم أنشد:

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بَصَائِرْ
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الأصاغر والأكابر

لا يَـــرْجِـــعُ الـــمـــاضـــي ولا
يـبـقـى مـن الـبـاقـيـن غـابِـرْ
أيـــقـــنـــتُ أنـــي لا مـــحـــا
لـةَ حـيـث صـار الـقـوم صـائـر

دراستها: بالنظر في معانيها وإن اختلفت رواياتها فإنها تدور حول التفكر في الكون والاتعاظ بالموت واستنكار ما عليه الناس في الجاهلية ولفت الأنظار إلى دين الله هو أرضى مما هم عليه، فهي اجتماعية عامة أكثر منها موضوعية.

موضوعها: تستطيع أن تستخلص عنوانها بأنها وعظ وإذكار.

جوُّها: لقد قيلت في سوق عكاظ وهي سوق تجارية وأدبية تجمع بين عَقْدِ الصفقات وعرض الكلمات فهي معرِض للإنتاج المادي والفكري، وهي ميدان التفاخر والتفاضل، فالجو جو لهو وتلاوٍ، وغفلة وتمادٍ، فإذا ورد هذا السوق رجل مثل قس، وهو رجل متحنث، لا بد أن يعرض ما عنده كما يعرض كل إنسان إنتاجه، فعرض قس هذه الخطبة يذكِّر أهل السوق ويعظهم.

العرض: لقد أوجز المقدمة بالدعوة الصريحة إلى السماع والوعي، (أيها الناس اسمعوا وعوا).

ثم عرض قضايا مسَلَّمة: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. لينبه الأذهان وينتقل بهم مما تَعْلَمُهُ

وَتُسَلِّمُ به بدون أن يعوزَها التفكير وتستعد لما بعده وإلى ما يحتاج إعمال الفكر وتسريح النظر فيما يلابس الحياة: ليل ونهار، سماء وأرض، جبال وبحار، نجوم وأبراج، لما فيها أيضاً من عظات وعِبَر كي يستنطق العقل بعد إعمال الفكر ـ إنْ كان إعمالاً قليلاً بغير بعيد ـ، لأنها موجودات ومسلمات، ولا تستدعي فكراً طويلاً، ولا استنتاجاً بعيداً، بل قليل من التأمل ينتج أن وراء هذه العوالم مَلِكاً قادراً، أوجدها ودبر أمرها. فَقَسٌّ حينما يربط وعظه وتذكيره بها إنما هو استنهاض للهمم نحو التفكير الجَدِّيِّ فيما وراءها من قدرة وسلطان.

وبعد الوصول إلى هذا الحد من التنبيه يعرض موضوعاً رئيسياً في صورة تساؤل: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ وهو وإن لم يتلق جواباً صريحاً، فكأنما استقر في أذهان السامعين تجاوباً أكيداً، أن الذاهبين لا يرجعون، وأنهم أمام أمر مجهول يقتضي التفكر والوصول إلى جواب مقنع، وأن ما هم عليه من اعتقاد بعدم البعث ليس مُجدياً، وأنهم يجب عليهم أن يعيدوا النظر. وهذا الموضوع من الخطبة، يعتبر مرحلة نفسية، لها ما بعدها، ذات أهمية عند الكُتَّاب والدعاة والخطباء. وهي أن الداعية أو الخطيب إذا تناول أمراً يخالف ما الناس عليه ودعاهم إلى الأخذ بما يدعو إليه لا بد أن يحملهم على ترك ما هم عليه أولاً. ولا يمكن أن يتركوا ما هم عليه إلا إذا

اقتنعوا بعدم صلاحيته، ولا يستطيع إقناعهم بعدم صلاحيته إلا بعد أن يشككهم فيه، فإذا وصل إلى مرحلة التشكيك، وقفوا عن المضي فيما هم عليه وبدؤوا يتساءلون عن الحقيقة وأين هي.

وإذا استطاع أن يصل بهم إلى ذلك الحد، كان قد وقف على أبواب النجاح، وعند مجيئه بالجواب على تساؤلهم وبيان الحقيقة لهم، كان أدعى إلى قبولها لشدة تطلعهم وتشوقهم إلى معرفتها.

وهنا نجد الخطيب جاء بسرعة بالجواب الذي يتطلعون إليه مؤكداً بالقسم الذي لا حنث فيه (إن لله ديناً هو أرضى لله)، أي: إن الله الذي لزمكم الاعتقاد به؛ لإيجاده تلك العوالم العظمى التي عددها في أول الخطبة، سماء بأبراجها ونجومها وأرض وجبال وبحار، لله رب هذه العوالم دين هو أرضى له من دينكم الذي أنتم عليه من معتقدات فاسدة ومعاملات باطلة، وأمور منكرة.

ثم أتاهم بما يروق لهم سماعه في أسلوب العرض بشعر ألفوا سماعه ليرسخ في أذهانهم لسهولة حفظه وخفة نظمه.

وفي الذاهبين الأولين ـ من القرون لنا بصائر.. إلى آخر الأبيات ضمنها مجمل ما تقدم في نثره.

النتيجة: لا شك أن لهذه الخطبة تأثيراً على النفوس، لما أثارت من وعي وتفكير. وخاصة ما لامست من جوانب

الموت والفناء الذي تهتز له النفوس وتخشع له القلوب، بل وتفزع من رؤية صوره ولو في الحيوان، فلا بد أن يكون لهذه اللمسات من أثر في النفوس يجعلها تتطلع إلى كشف الحقيقة عما وراء الموت، والتشوف إلى الدين الذي هو أرضى لله مما هم عليه.

وهذا القدْر من التأثير يعد نجاحاً عظيماً بالنسبة إلى الخطيب، وبهذا يكون قد وصل إلى ما أراد من عظة وتفكر وتطلع إلى دين جديد يكون أقرب إلى مرضاة الله تعالى.

٥ ـ نموذج في الدعوة إلى الإسلام عند ظهوره:

خطبة أكثم بن صيفي في أول مبعث النبي ﷺ.

لما ظهر النبي ﷺ ودعا الناس إلى الإسلام، بعث أكثم بن صيفي ابناً له اسمه حبيش إلى النبي ﷺ ليأتيَه بخبره، فلما رجع إليه جمع قومه من بني تميم فخطبهم خطبته المشهورة فقال:

يا بَني تميم لا تحضروني سفيهاً فإنه من يَسْمَعْ يَخَلْ، إن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني ودخلتني ذلة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقِم. إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره وكتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو

الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي تركُ ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد ﷺ ومساعدته على أمره أنتم، وإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه؛ وقد كان أسقُف نجران يحدّث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمداً، فكونوا في أمره أوّلاً ولا تكونوا آخراً، ائتوني طائعين، قبل أن تأتوا كارهين.

إن الذي يدعو إليه محمد ﷺ لو لم يكن ديناً، كان في أخلاق الناس حسناً. أطيعوني واتبعوا أمري أسألْ لكم أشياء لا تُنزع منكم أبداً، وأصبحتم أعزَّ حيّ في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً، فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ، ولا يلزمه ذليل إلا عزّ، إن الأول لم يدع للآخِر شيئاً، وهو أمر له ما بعده، من سبق إليه غمر المعالي، واقتدى به التالي. والعزيمة حزم، والاختلاف عجز. فقال مالك بن نويرة، قد خرف شيخكم، فقال أكثم: ويلٌ للشجيِّ من الخليِّ، والهفي على أمر لم أشهده ولم يسبقني.

دراستها:

أولاً ـ موضوعها: يدور موضوعها حول الدعوة إلى الأخذ بما يدعو إليه محمد ﷺ: والمبادرة إليه وبيان نتائج ذلك من إصلاح مجتمعهم، فهي اجتماعية شاملة.

ثانياً ـ جوُّها: نكاد نحس عواطف الشيخوخة، ونصح

المجرب، وخبرة الكهول، ومودة القرابة، وحب الخير للعشيرة، فالجو عائلي هادئ تحفه المودة، وتتخلله العواطف، ويدعمه النصح، وتسانده التجارب.

العرض: أ ـ الجانب النفسي: إن ما تصورناه من جو هذه الخطبة يجعلنا نحس بعوامل نفسية تجيش بخاطر الخطيب من قبل إلقائها، تنبعث تلك العوامل من أعماق شعوره وتتفاعل مع أحاسيسه، ونكاد نحس امتزاج عناصرها من عواطف الشيخوخة بمخاوف ظنون الشباب، ودقة نظر العقلاء بسطحية السفهاء، وتثبت الكهول بتعجل الأحداث.

تولدت هذه العناصر ووُجدت عند الخطيب من بعد عودة ولده إلى وقت دعوته لقومه يجتمعون إليه. وبرزت نتائج هذا التفاعل في مطلع خطبته وأوائل مقدمتها: في قوله: «لا تحضروني سفيهاً إن من يسمع يَخَلْ» كأنه قدر لهذا الموقف ثم يمضي في تحذيره من آراء السفهاء وتأثيرهم على العقلاء، وتحريضه على اتباع العقلاء بقوله: لا خير فيمن لا عقل له.

كما أننا نكاد نلمس تأهب الشيخ واستعداده لمواجهة قومه واستشعاره بمسؤولية ما سيلقيه عليهم وذلك من غضون اعتذاره بكبر سنه وتلطفه لهم (فإن رأيتم مني حسناً فاقبلوه وإن رأيتم غير ذلك فقوِّموني أستقم).

ب ـ الجانب الفني: ومن الجانب الفني نجده استهل خطبته بما يتناسب مع موقفه ويتجاوب مع عوامل نفسه: يا بني

تميم لا تحضروني سفيهاً، ففيه إيحاء بخطورة ما سيلقيه عليهم وأهمية ما جمعهم إليه ثم احترز من تخيلات السفهاء ونبههم على ذلك بقوله: إنَّ من يسمع يخل. ودعم طلبه السابق لا تحضروني سفيهاً: ثم علل لِما طلبه منهم وحثهم على وحدة الكلمة: إن السفيه يوهن من فوقه، ويثبط من دونه، وكأن الجمع قد اكتمل من عقلاء كمل فقدر هذا وقدم اعتذاره، «كبرت سني ودخلتني ذلة» ثم أشركهم معه في المهمة وحثَّهم على التعاون معه: فإن رأيتم مني حسناً فاقبلوه وإن رأيتم غير ذلك فقوموني أستقم. وفي هذا إنصاف من نفسه وفتح الأذهان إلى التطلع بدقة والتفكير البعيد والاستعداد للنقد والتحليل وليمكنهم الحكم على حسنه بالحسن وعلى غيره بما يصلحه.

ثم دخل إلى الموضوع بما يوجب الطمأنينة والثقة، إن ابني: أي ما لا يتهم ولا يخادع كما قالوا في أمثلتهم: «إن الرائد لا يكذب أهله»، ثم بين لهم صورة تلقي الخبر (إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة) أي بلا واسطة فلا ريبة ولا مظنة.

الموضوع: ثم تناول الموضوع: وأتاني بخبره، وكتابه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران.

عدة مسائل تناولها يرتبط بعضها ببعض وتكون موضوعاً واحداً. أمر بمعروف. ونهي عن منكر: إصلاح للمجتمع،

أخذ بمحاسن الأخلاق: رفع لمستوى الإنسانية، دعوة إلى توحيد الله: أداء لحق الربوبية، والتخلص من ذل العبودية، خلع الأوثان: تمام التوحيد على حد قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ترك الحلف بالنيران: استقصاء لاستئصال أنواع الوثنية.

كل هذه النقاط تشكل موضوعاً واحداً، هو إخراج الناس من ظلام الجهل والضلالة إلى نور العلم والهداية، باتباع محمد ﷺ فيما يدعو إليه كتابه.

ثم بعد إيضاح موضوعه أخذ في إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بوجوب الأخذ بما جاء به، وقد تفنن في عرض تلك الأدلة فبدأ بإثارة العاطفة الإنسانية التي يتطلع إليها الجميع ويتمناها لنفسه فقال: وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

ثم أتاهم من جهة العصبية المتمكنة في طبائعهم فقال: إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم. فكأنه يقول لهم: إن لم تتبعوه رأياً وفضلاً فاتبعوه حمية وعصبية، كما قال صفوان بن أمية يوم حنين وهو على دين قريش: لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن[1]. وأكد تلك الحمية منطقياً بقوله: إن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٧٠٤ ـ موارد)، وحسنه الألباني في صحيح موارد الظمآن (١٤٢٤).

الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه، والستر عليه. أي هو منكم وأنتم أهله، حسباً ونسباً تحرصون على سمعتكم وما يكون من أحدكم ينسب إلى مجموعكم فإن كان الذي جاء به خيراً فهو لكم، وإلا فاستروه وكفوا الناس عنه.

ثم انتقل إلى الدليل النقلي المسلم عندهم، والصادر ممن يصدقونهم فقال: إن أسقف نجران كان يحدّث بصفته ـ والحال أنكم تصدقونه ـ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل. وهذا كاهن ينزلون على حكمه ويصدقون قوله. وزاد حديثه عنه ثقة أنه سمى ابنه محمداً. أي أنه علم أن نبياً سيبعث وأن اسمه محمد ـ وإن كان لم يعلم ممن سيولد ـ فسمى ولده باسمه انتظاراً لمبعثه آملاً أن يكون هو.

ثم بعد عرض الأدلة ـ عاطفية، ثم عصبية، ثم نقلية ـ عمد إلى التحريض والتحذير فقال: فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً. أي إذا أقيمت لكم الأدلة المتنوعة إنسانية، وعصبية، ونقلية. فما بقي إلا التقدم إليه والاستجابة لدعوته فكونوا أولاً ولا تكونوا آخراً. ثم أنذرهم مغبة التخلف: إيتوني طائعين قبل أن تأتوني كارهين.

ثم تدرج في الدعوة إليه كالآتي:

أ ـ عرض ما يدعو إليه محمد ﷺ وتحسينه عند ذوي الرأي منهم.

ب ـ تدعيمه بالأدلة: عقلية، عاطفية، نقلية.

جـ ـ تحريض على اتباعه بحسن العواقب، وتحذير من التأخر عنه بسوء العواقب.

د ـ إنذار ووعيد بالإكراه لهم على الاتباع.

ثم عاد إلى الترغيب في تلطف فقال: إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً. فجمع بين الترغيب والترهيب كما في أمثال العرب: «ثمرة وسوطاً».

وبهذا استكمل عرض الموضوع من كل جانب فانتقل إلى الخاتمة يجني ثمرة عرضه في سهولة.

النتيجة: جاء إليها بعد عمل موفق وترتيب حسن. أطيعوني واتبعوا أمري أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبداً وأصبحتم أعز حي في العرب، وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً، فكأنه أراد أن يقابل كسبه منهم بكسب لهم، وقد افترض اقتناعهم ولم يبق إلا التساؤل عن نتائج ما يكون لهم من استجابتهم واتباعهم إياه. فبادرهم بما يستهويهم ويرضي أَنَفَتَهم ويساير عزتهم، وقابلها بأضدادها لتتضخم في أذهانهم فقال: فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز. وهذا الرأي الذي أبداه إنما هو استنتاج الشيوخ وتجارب الأيام، وهم يقدرونها قدرها.

ثم دفعهم بقوة إلى التقدم ولم يدع لهم مجالاً في التردد أو التساؤل: إن الأول لم يدَعْ للآخر شيئاً، أي كونوا فيه أولاً فتقدموا إليه بسرعة، ولا تتوانوا وتأتون إليه آخراً، ونتائج هذا

الإسراع والسبق تأتي في قوله: من سبق إليه غمر المعالي واقتدى به التالي، أي كان إماماً لا مأموماً وسيداً لا مسوداً وقدوة لغيره.

وبعض الكتاب يناقشه في قوله هنا: إن الأول لم يَدَعْ للآخِر شيئاً بأن الآخر قد جاء بما لم يوجد من قبل كالاختراعات الحديثة والصناعات المتنوعة. ولكن هذه المناقشة لا حاجة إليها ولا تتوجه إليه لأنها مبنية على التعميم في كل أول وكل آخر والجملة قيلت في قضية خاصة هي التي هو بصددها من الأخذ بما دعا إليه محمد ﷺ فحسب. وهو صادق في قوله وحكمه، لأن أوائل المهاجرين لم يدعوا للآخرين في منتهى الأزمان بل ولا لمن جاؤوا بعد الفتح، فقد فضل الله المهاجرين الأولين وجعل من أنفق قبل الفتح، وقاتل أعظم ممن أنفق بعد الفتح وقاتل. وكلّاً وعد الله الحسنى.

وبقوله: العزيمة حزم، والاختلاف عجز: ينفذ إلى أعماقهم ويصل إلى منتهى قوة الدوافع ويقضي على كل أثر للتردد.

وإلى هنا تعتبر الخطبة قد انتهت على أتم ما يكون، ووصل إلى أعظم نتائج، وقد جاءت كلمة مالك بن نويرة مصداقاً لما صدر الشيخ خطبته من إبعاد السفهاء خشية الوهن على غيرهم، وجاء جواب الشيخ عليه تحقير السفهة ونفثة من مصدور، ويل للشجي الذي امتلأت جوانحه بما يشجيه، ولا

يعلم به من لم يعانيه، من الخلي الذي لا إحساس له كإحساسه أو لا يدرك إدراكه لخلو فكره وسطحية تفكيره. ثم أرسلها زفرة حارة، تحرق أوهام الجهال وتبدد ظنون السفهاء وتؤكد عزم الصادقين: والهفي على أمر لم أشهده، ولم يسبقني!

وفي النهاية نستطيع أن نقول: إن هذا الشيخ قد أعطى هذه الخطبة حقها: من إعداد تام، وتقديم قوي، وعرض متكامل فدعا قومه للاجتماع ثم خلّص المجتمعين من السفهاء ليكون الباقون على مستوى موضوعه رفعة واهتماماً. ثم تلطف في عرضه الموضوع وبيان محاسنه، ثم إقامة الأدلة الخطابية كلها من عاطفية عند ذوي الرأي، وعصبية عند ذوي الحسب، ونقلية عند ذوي العلم والخبرة، أي استخدم كل الوسائل لإثارة العواطف والإقناع. ثم التدرج من العرض بالأدلة إلى الحث والتحريض، ثم الإنذار والترغيب، ثم بيان النتائج العملية ثم المقارنة من المتقدمين إليه والمتأخرين عنه ثم دفعهم دفعاً حثيثاً إلى الإقدام وقطع عليهم طريق التردد.

وبهذا يكون قد وفق كل التوفيق في تقديم هذه الخطبة، وأعطانا أصدق صورة لتحضيرها وكيفية إلقائها وعرضها بما يفي بالمقصود ويوصل إلى النتيجة.

ثانياً: الخَطابة الإسلامية

عرفنا مدى عناية الإسلام بالخطابة، وإلى أي حد ساهمت الخطابة في نشر الدعوة، وبيان الرسالة.

ومن الطبيعي أن يكون بقدر ما تسهم الخطابة في نشر الإسلام، بقدر ما يعمل الإسلام على تقويتها والعناية بها، شأن الحكومات في الصحافة والإذاعة ووسائل الإعلام في وقتنا الحاضر.

وقد كان لأسلوب القرآن ومعانيه اليد الطولى على الخطابة في العصر الإسلامي حتى بلغت أقصى غايات الرقي والازدهار. كما كان للخلاف وتعدد الخلافة فيما بعد أثر بالغ في انفساح المجال أمام الخطباء للتسابق على نصرة كل خطيب لمن ينتمي إليه، فوجدنا صولة الخطابة مع جولة القتال جنباً إلى جنب بل كان السبق للخطابة، والكلمةُ للخطباء.

ولا يمكن تتبع كل ذلك في جميع العصور ولا في كل الأقطار الإسلامية، لطول مداه وبعد منتهاه.

أهميتها في صدر الإسلام: وبما أن الخطابة في صدر الإسلام هي المثال العملي وهي الأساس لكل ما بعدها فإننا سنكتفي بدراسة نماذج منه عوضاً عن كل العصور التي بعده،

ولا سيما وأن الخطابة في هذا العصر أصدق ما تكون في جميع العصور الإسلامية من حيث الدعوة إلى الله تعالى وشرح معاني الإسلام وحسن عرضها وإيضاحها على الفطرة السليمة بخلاف الخطابة في بقية العصور، فقد دخلت الأغراض، ولعبت الأهواء، وظهرت السياسة، فتكدر صفاء النبع، وشوش اللغط هدوء الأمة، ودنس الدَّخَل سلامة الفطرة.

ومن هنا كانت دراسة الخطابة في صدر الإسلام هي أصل للخطابة السليمة التي تتمشى مع فطرة الدعوة وفطرة المدعوين.

الخطب الهامة: إن أهم خطب ألقيت في صدر الإسلام لهي من أهم خطيب بلا منازع، من أفصح الأمة وإمامها وقائدها ومرشدها هو النبي ﷺ؛ وللرسول صلوات الله وسلامه عليه مواقف عديدة، وخطب متعددة، لأن حياته كلها كانت دعوة وبلاغاً، وكلامه كله كان تعليماً وبياناً لما نزل إليه من ربه، ولهو أفصح العرب بيد أنه من قريش. وقال تعالى في بيان عمله في الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فهو التالي لكتاب الله، المعلم لخلق الله، وكان كلامه وحياً وتعليمه حكمة.

وعليه فإن الدارس له لا يدرسه كما يدرس غيره تحليلاً ونقداً، لأنه فوق التحليل وبعيد عن النقد. وإنما يدرسه تبياناً

واستنتاجاً، ليأخذ منه ما يظهر له من توجيهات يترسم خطاها ويهتدي بهداه ويستن بسننه.

ومن هنا كانت نماذج الخطابة النبوية كافية للخطابة الإسلامية كلها.

ولن نستطيع أن نتتبع كذلك الخطب النبوية ولا أن نفاضل ونتخير بينها، ولكن سنأخذ ما يجمع طرفي الدعوة من أولها وآخرها وما تتجمع فيه أهم المسائل العامة. وعليه فنأخذ لهذا المقام الخطبة الأولى في الدعوة والخطبة الأخيرة فيها أي أوائلها وأواخرها على سبيل التقريب، لنرى مدى تطور الدعوة وأثر الخطابة وما آلت إليه في أقل من ربع قرن.

النص الأول: أول خطبة خطبها النبي ﷺ في مكة حين أُمر بإنذار عشيرته الأقربين على اختلاف الروايات والصور فإنها تتفق على غرض واحد فمن صورها أنه ﷺ جمع أهل مكة عند الصفا وبدأ بقوله:

«أرأيتم إن حدَّثتكم أن العدو مصبِّحكم أو ممسِّيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: نعم، فقال: **«إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[1].

وفي بعضها: **«إن الرائدَ لا يَكْذِب أهلَه، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غَرَرْتُ الناسَ جميعاً ما غررتكم.**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لَتموتُن كما تنامون، ولَتُبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسبُنَّ بما تعملون، ولَتجزَون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لَلْجنة أبداً، أو النار أبداً»[1].

وعلى كلتا الروايتين، فإنه ﷺ في الرواية الأولى قد ألزم السامعين اعترافاً بصدقه قبل أن يلقي إليهم موضوعه ليقطع عليهم خط الرجعة في تكذيبهم إياه.

وهذا العمل يعطينا نتيجتين هامتين هما:

الأولى: مدى تأثير صدق الخطيب في نفوس السامعين ونجاح خطابته.

الثانية: ضرورة مراعاة نفسيات المخاطبين لأن الرسول ﷺ توقع منهم الإنكار لما سيلقيه عليهم ولا سيما مع غرابته، فاستوثق لنفسه أولاً وأقام الحجة عليهم بصدقه قبل إنكارهم.

ومن هنا وجب على الخطيب: تحريه الصدق واستيثاقه لنفسه من أول وهلة، وقد فعل نحواً من ذلك عروة بن مسعود الثقفي، حينما أرادت قريش إرساله إلى النبي ﷺ في الحديبية ليفاوضه على الصلح فقال لهم: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يَلقى منكم من بعثتموه إلى محمد ـ إذ جاءكم ـ من التعنيف

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٥).

وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، فقالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم[1]. فقد استوثق لنفسه منهم واستخلص اعترافهم له أنه ليس بمتهم، وقد شاكل النبي ﷺ بين مقدمته وموضوعه، من ذكر العدو مصبح أو ممس بما فيه من إرهاب وإنذار واستنهاض همم والتأهب لملاقاته.

فكان في تلك المقدمة وهذا الاستهلال زيادة على إلفات الأنظار وتنبيه الأذهان، فيه تهييج إلى الحذر والاستعداد الكامل لطلب النجاة من مهلكة تهددهم، وفي هذا الجو الإرهابي جاء إلى الموضوع بسرعة وقوة وفي إيجاز. فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، وإنا لنحس موجب الإسراع إلى الموضوع وهو لكي يلقي إليهم وهم في انتباهتهم الفكرية تحت رهبة جيش مصبح أو ممس وراء هذا الجبل القريب. ولكي يستوعبوها قبل أن ينفضوا أو تضيع في صخب الإنكار.

ونكاد نلمس كذلك القوة في قوله: «**إني نذير لكم**». قوة إيمانه بدعوته وثقته بمن كلفه بها وثباته على أمره.

أما الإيجاز فَلِتَوَقُّعِهِ انفجارهم في ثورة وغضب وسخط لأول وهلة من ذكر موضوعه، فأوجز عبارته كي يستوعبوها قبل انفضاضهم، ولئلا تضيع في لجة الصخب وهيجان الغضب، وقد كان ما توقعه منهم كما جاء من أبي لهب.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

ومن هنا يجب على الخطيب دقة النظر والنفوذ إلى أعماق المخاطبين، وتكييف موضوعه حسب ما يتوقعه بناء على ملابسات الموقف.

وفي الرواية الثانية: سواء كانت جزءاً من الخطبة الأولى أو كانت خطبة مستقلة. فقد كانت نهاية في الدقة والعمق وكلها دروس وقواعد. بدأها ﷺ بنحو مما بدأ الأولى من إثارة معنى التصديق إلا أنه هنا، نبه العواطف الأخوية إلى الروابط الأهلية، **«إن الرائد لا يكذب أهله»**، أي أنتم أهلي وعشيرتي. وفي هذا من إصاخة السمع، وانشراح الصدر لتحمل واستيعاب ما سَيُلقى عليه. ثم أعقبه بما يدفع أي توهم أو يخالج النفوس من تهم مع التدرج نحو الموضوع بتهيئة الجو إليه، **«والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم»**. فالإقسام بالله من الصادق الأمين بين يدي موضوع، يجعل السامع يتوقع أمراً هاماً، ويدفع احتمال الكذب منه عليهم خاصة ولو احتمل جدلاً حصوله على غيرهم، لبروز عنصر العواطف نحوهم والروابط بهم، والحرص على ما ينفعهم.

وقد رأينا المقدمة هنا أطول من ذي قبل، ومشتملة على مثيرات للشعور والتطلع أقوى، وهذا ما يتناسب مع أهمية الموضوع والعناية به.

كما أن أسلوب التوثيق والتقوية مستمر في عرض الموضوع حيث قال: **«والله الذي لا إله إلا هو»**. لما فيه من

روعة في التقديم، وقوة في التركيب حيث جاء الإقسام بما يريد أن يحملهم عليه من توحيد الله تعالى، وكأنه واثق من ذلك ومقدر ذلك منهم فيقسم لهم بما ينازعونه فيه، أما المقسم عليه فقوله: إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة. وفي تخصيصهم بمهمته وتعميم الناس بعدهم جانبان مهمان:

الأول: تركيز المسؤولية فيهم وتحميلهم أعباءها ليأخذوها ويبلغوها للناس عامة في حياته ومن بعده أي لا أتباع بل دعاة.

الثاني: تنبيه العواطف الأهلية في تخصيصهم بها. لما فيها من مصالح عامة وسعادة تامة، فأنتم أولى بالتقديم فيها على غيركم والناس عامة من بعدكم.

وبديهي أنهم سينكرون تلك الدعوة الجديدة بقلوبهم، وتثقل على آذانهم ويصعب تقبلها وتفهمها على عقولهم فكان لا بد من أدلة واضحة تساند الجوانب العاطفية أدلة قاطعة. فقدم ما يسلمون به من صدقه ودعمه بالعواطف الأهلية وانتقل إلى محسوس دائم. «**والله لتموتن كما تنامون**»، نعم إنهم لم ينكروا الموت لأنهم يعاينوه كل يوم، وإنما جيء به ليبني عليه ما بعده وهو المقصود له: «ولتبعثن كما تستيقظون»، فلئن عرفتم الموت كالنوم بجامع فقد الإحساس، ثم علمتم اليقظة منه بعودة الإحساس إليكم بالاستيقاظ، فكذلك البعث بعد الموت فهو كالاستيقاظ من النوم.

فإذا آمنوا بالبعث، أو تصوروه أو أُلزموا به جاءت النتيجة من هذا الإيمان، **«ولتحاسبن بما تعملون»** ولازم النتيجة كذلك: **«ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً»**، ثم بيان هذا الإحسان وذاك السوء وأنهما بالجنة أو النار.

وهنا نجد الخطبة اشتملت على الخطوات التسلسلية الآتية:

إثبات الرسالة ثم الإخبار بالبعث وما فيه. وهما مبدأ الدعوة وأساسها، فالإيمان برسالته من الله يستوجبه لزوم الأخذ بكل ما جاءهم به عن الله.

والإيمان بالبعث والجزاء، يبعث على فعل الإحسان، وتجنب الإساءة، وإثارة عوامل الرغبة والرهبة بالنسبة للجنة والنار.

وهذا القدر فيه الكفاية بالمقصود في بدء الدعوة، وإليه المنتهى عند نهايتها.

الاستنتاج: نستنتج من هذا النموذج النقاط الهامة التالية:

١ ـ أهمية الصدق للخطيب كعامل لنفي التهمة عنه.

٢ ـ استيثاق الخطيب لنفسه كعامل لإلزام المستمعين.

٣ ـ تقديره للموقف وتكييفه موضوعه بحسبه كعامل لتقويته وتمكنه من أدائه.

٤ ـ ربط المقدمة بالموضوع بما يجانسه من المحسوس.

٥ ـ استخدام وسائل الإثارة، أهلية أو شخصية.

٦ ـ زيادة التوثيق بالقسم إن لزم الأمر.

٧ ـ التدرج من المسلَّم به إلى المنازع فيه.

٨ ـ الانتقال من النتائج إلى لوازمها.

وكل هذه النقاط تعمل على نجاح الخطيب إذا راعاها أو أكثرها واهتم بها وهي كما نرى قواعد وأسس هامة للغاية.

النص الثاني: خطبته ﷺ في حجة الوداع:

اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع خطبة عظيمة، قال ابن كثير: وقد خطب رسول الله ﷺ في هذا اليوم الشريف (يوم العيد بمنى) خطبة عظيمة تواترت بها الأحاديث، وساق عن البخاري وغيره من المحدثين عن كل واحد طرفاً منها.

وقد أوردت كتب الأدب لها نصاً منتظماً يعتبر جامعاً لأكثر ما اشتملت عليه كتب الحديث، وقد وجدت بعض الزيادات في بعض المراجع. ولم يوجد نص شامل يمكن القطع به بأنه حكاية الواقع على ما جاء تماماً وهذا أمر طبيعي في المواقف العامة وبالأخص بالنسبة إلى خطبة طويلة فكل يروي حسبما سمع. وقد أراد النبي ﷺ إبلاغ الجميع نظراً لفرصة هذا الجمع فبلّغه الله ما أراد، قال ابن كثير بسنده إلى عبد الرحمٰن بن معاذ التيمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٥٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧١٠).

وقد جاء في بعض أجزاء الخطبة ما يدل على أنه ﷺ أراد تحميلهم أمانة الدعوة ومسؤولية التبليغ لقوله فيها: «**فليبلغ الشاهد منكم الغائب**».

ولا شك أن ذاك الجمع يعد أعظم جمع تنشر فيه الدعوة، وتبلغ له الرسالة ويحرص فيه الداعي على أن يبذل جهده في التوجيه، وقد عمل له ﷺ مسبقاً حيث أرسل رسلاً له في القبائل قبل أن يغادر المدينة يعلنون أن الرسول ﷺ حاج هذه السنة فمن أراد الحج معه فليوافه[1].

مما يجعلنا ننتهز فرصة التجمع ونستغل المجتمعات لنشر الدعوة والتوجيه.

وبهذه المناسبة ينبغي تنظيم مؤتمر لجمهرة من الخطباء المشهورين بالنشاط في الدعوة لمعالجة الكثير من قضايا العالم الإسلامي. كما فعل النبي ﷺ.

نص خطبة الوداع[2]

إن أجمع نص لخطبة الوداع هو ما ساقه صاحب جمهرة

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) بنحوه.

(٢) أخرجها البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
وأخرجها البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.
وأخرجها البخاري (١٧٤٢) من حديث ابن عمر.
وأخرجها مسلم (١٢١٨) من حديث جابر.
وأخرجها الترمذي (٣٠٨٧) من حديث عمرو بن الأحوص، وحسنها الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٦٤).

خطب العرب الذي جمعه من عدة مراجع فنسوقه، ثم نأتي بعده بما يوجد من بعض الزيادات مما يستقل ببعض المسائل.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته. وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومِكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول رباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعةٌ غيرَ السِّدانةِ والسِّقاية. والعَمْدُ قَوَد، وشبهُ العمدِ ما قُتِلَ بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناسُ: إن الشيطان قد يئس أن يُعبَدَ في أرضكُم هذه، ولكنه قد رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلكَ مما تَحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدةَ ما حرم الله، وإن الزمانَ قد استدار كهيئتِه يومَ خَلق الله السمواتِ والأرضَ. منها أربعةٌ حُرُم. ثلاث متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا قد بلغت؟ اللهم اشْهَد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهنَّ حقٌّ، لكم عليهن ألَّا يوطئنَ فُرُشكُم غيرَكُم، ولا يُدخِلْنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلنَ فإن الله قد أذن لكم أن تَعضُلوهُنَّ وتهجُروهن في المضاجع، وتضربوهنَّ ضرباً غَير مُبرِّح. فإن انتهينَ، وأطعنكُم فعليكم رزقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوةٌ، ولا يحِلُّ لامرئٍ مالُ أخيهِ إلا عن طيب نفْس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا تَرجعُنَّ بعدي كُفّاراً يضرب بعضُكُم رقابَ بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلُّوا بعده كتابَ الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم،

وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارثٍ نصيبَه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصيةٌ، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقد جاء في بعض المراجع بعضُ النصوص تشتمل إمّا على مواضيع زيادة أو مغايرة في أسلوب العرض.

فمن الزيادة: «لا تنفق امرأة من بيتها إلا بإذن زوجها». فقيل: يا رسول الله ولا الطعام. قال: «ذاك أفضل أموالنا»[1].

ثم قال: «العارية مؤداةٌ والمِنحة مردودة، والدَّين مَقْضِيٌّ، والزعيم غارم»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٢٩٥)، والترمذي (٦٧٠) وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٥٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢٢٩٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٢١).

ومنها: «**إنما هن أربعٌ لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا**»[1].

ومنها: «**أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»[2].

وأعتقد أنه لو تتبع إنسان مراجع السيرة والحديث، لوجد زيادة لما أسلفنا من أسباب، وفيما ذكر من النص والعرض فيه كفاية للصورة المطلوبة، والغرض المقصود من الدراسة.

دراستها علمياً وأدبياً:

أما علمياً: فإنها حافلة بالتعاليم والتشريع والمبادئ العامة مما تتسع له كتب الحديث والفقه، وما ستظهر آثاره عند العرض الأدبي إن شاء الله.

وأما أدبياً: وهو المقصود الآن، فكالآتي: أولاً فكرة عن الخطب العامة في المجامع الكبيرة من القادة والزعماء: تكاد خطب المجتمعات العامة والمجامع الحافلة التي يلقيها الساسة والقادة والزعماء أن تكون إما بيانات رسمية وبلاغات عمومية فتأتي نظامية خالية من الإثارة والعواطف.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٢٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٣٢٢).

وإما أن تكون تهريجاً ومجاملات في المجتمعات التقليدية مثلاً، فتأتي خلواً من المبادئ والتوجيهات، فهي مشغلة للرأي العام مضيعة للوقت، وإن اشتملت على إثارة وعواطف فهي ذات تأثير مؤقت.

أما هذه الخطبة النبوية في هذا المجمع فقد ارتفعت عن مستوى التهريج، وحفلت بالمبادئ السامية، موشحة بالعواطف، تفيض بالأحاسيس والشعور بالمسؤولية، مُدعَّمة بإشهاد الله تعالى، مصونة بمراقبة الضمير ومخافة الله.

وإذا قلنا: قد جاءت تلخيصاً لدعوة ثلاث وعشرين سنة، وإرساء قواعد أمة إلى الأبد، وتوجيهاً لأجيال المستقبل مدى الحياة في منهج إسلامي فاضل. وقلنا: إنها فيض من عواطف مشفق رحيم ومودّع كريم، فإننا لا نبعد عن الواقع. ومن هنا فإنها جديرة بإفرادها بدراسة مستقلة.

أسلوبها: لم تأت على أسلوب الإثارة العاطفية ذات التأثير المؤقت، ولا في قالب النظاميات الجافة التي تتسم بطابع السلطة والتحكم، بل كانت على أسلوب حيوي جمع إلى التنظيم والعواطف، وعواطف إيمان لا إثارة، عواطف تثمر الالتزام، وفرق بين الإلزام الجبري والالتزام بالإيمان كفرق ما بين التسلط والتحكم وبين الامتثال والرضا. كما جاء أسلوبها سلساً مرسلاً بعيداً عن تعقيد التكلف، وافتعال الصناعة، من سجْع وجناس وغيره.

موضوعها: وقد تناولت هذه الخطبة عدةَ مواضيع وقضايا تتضمن كما أسلفنا خلاصة التشريع الإسلامي، من أحكام فقهية، وتوجيهات اجتماعية، وإرشادات إنسانية.

العرض: بالنظر إلى الخطبة الأولى وما افتُتحت به، وهذه الخطبة وافتتاحيتها، نجد بوناً بعيداً بعد ما بين الوقتين اللذين قيلتا فيهما. وفرقاً شاسعاً ما بين البدء والختام، مع تناسب كل منهما مع موقفه وظروفه.

فلئن كانت تلك موجزة معنية بالمخاطبين. فإن هذه هنا مسهبة متوجهة إلى الله رب العالمين.

وكأنها تشير إلى أن العالم قد عرف الله فبدأهم بحق الله، فحمد الله وأثنى عليه، واستعانه على أمره، واستغفره فيما يكون بينه وبين ربه، وتعليماً للأمة الرجوع إلى الله بالتوبة، واللجوء إليه فراراً من شر النفس وسيِّء العمل.

وهنا إشارة لطيفة جداً وهو أن العبد يستعيذ بالله من شر نفسه فكأنه يقول له: إن الله الذي خلقك هو أحق بك وأحن عليك من نفسك التي بين جنبيك، وكذلك سيئات الأعمال التي تصدر من الإنسان وفيها الجناية عليه يلجأ إلى الله فراراً منها. ومن ثم أعقب هذا بطلب الهداية مع إشعار أنها لا تكون إلا من الله تعالى، ثم الشهادة بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ، وفي قوله ﷺ: **«وأشهد أن محمداً»** بإظهار دون إضمار، والتصريح باسمه عن نفسه فيه تجريد لشخصية الرسول

كأنها متميزة بالرسالة عما عداها. وهو كشخص في الأمة يشهد بالرسالة للشخص المرسل مع التعليم لغيره والالتزام بمنطوقه. ثم الوصية بتقوى الله والحث على طاعته. والاستفتاح بالذي هو خير.

فهي افتتاحية هادئة، موجهة، تتناسب مع عواطف المودِّع المشفق، الناصح الأمين.

وبعد هذه المقدمة والاستفتاح بالذي هو خير انتقل إلى الموضوع مبتدئاً بأخطر قضايا الإنسانية، وأعظم مشاكل المجتمعات: الدماء، الأموال، الأعراض، فصانها وحصّنها، لا بقوة السلطة وهيبة السلطان، بل بتقوى الله واستشعار حرمة البيت الحرام في الشهر الحرام في يوم الحج الأكبر.

ثم استتبع بقايا التشريع في التحريم للأصول الثلاثة بكل فرع لها كعملية تطبيق للأصل المتقدم، ففي الأموال: حرم الربا ووضع كل ربا كان في الجاهلية وقدم ربا عمه العباس، وفي الدماء: حرم كل دم كان في الجاهلية وقدم دم قريبه عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وفي تقديم كلٍّ من ربا عمه ودم قريبه، تنفيذ لقاعدة: ابدأ بنفسك، فإن عم الرجل صنو أبيه. ثم أسقط كل مأثرة بصفة عامة كانت في الجاهلية إلا السدانة والسقاية ولعل إبقاءهما لما فيهما من عمل الخير العام.

ويستتبع تحريم الدماء تحريم الاعتداء، وبيان الحدود، في العمد قود وشبه العمد الدية.

ثم أعقبه بالتحذير من مسببات التعدي وهي نزغات الشيطان: **«إنه قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك»**.

ثم يمضي إلى ما بداخل البيوت، إلى نصف المجتمع، فيوصي بالنساء خيراً ويبين ما لهن وما عليهن إحاطة بالجانبين فإذا أخذن ما لهن أدَّين ما عليهن، كل ذلك بالمعروف من كِلا الطرفين، ثم يستشهد الناسَ على التبليغ ويُشهدَ الله عليهم.

ثم انتقل إلى حقوق الأخوة الإسلامية وما تستوجب من حفظ المال وصيانة الدماء وطهارة الأعراض.

ثم يحذر من الرجوع إلى الكفر، والوقوع في الفتن، وضرب بعضهم رقاب بعض، ويحثهم على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

ثم ينبه على ما يجمع الشمل، ويوحد الوجهة بالرجوع إلى أب واحد ودين واحد ورب واحد.

ثم يصحح مقاييس التفاضل الحقيقية وهي تقوى الله تعالى.

ثم يعمد إلى ما يحمل الجميع مسؤولية التبليغ فيكلف الحاضرين إبلاغ الغائبين.

وبعد المسير مع المسلمين في طريق البيان إلى النهاية بين حالة الموت وحقوق الميت في الوصية وحقوق الحي في البقية، فأعطى الميت ثلث المال يوصي به، وترك للحي الثلثين للميراث.

ثم بين حقائق روابط النسب وقداسة الفراش وروابط الزوجية.

وهكذا إلى غير ذلك مما تناولته تلك الخطبة الجامعة الشاملة التي يجد فيها كل كاتب ودارس بغيته ويستفيد منها كل فقيه وأديب في التشريعات وأساليبه وأوجه البيان وطرق التعبير وقوة الربط.

الترتيب وقوة الربط:

بالعودة إلى عرض هذه الخطبة نجد عاملاً هاماً وهو الترتيب الطبيعي وقوة الربط بين مواضيعها العديدة.

أولاً: بعد المقدمة الهادئة التي أوجبت حق الله تعالى وأرسى قاعدة التوحيد التي هي أساس الدعوة وغرض الرسالة، انتقل إلى حقوق الآدميين فيما يتعلق بأهم شؤونهم: الأموال والدماء والأعراض، وهذه الثلاثة هي التي تقيم الدنيا وتقعدها. ثم ينبه على ما هو السبب في إفسادها أو إثارة الفتن فيها وهو الشيطان فيحذرهم منه.

ثم بعد الحقوق العامة أو الأعم يأتي إلى الأسرة فينظم علاقة الزوجين ويوطد حقوق الزوجة على تقوى الله تعالى لا على مال ولا سلطان، **«أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»**.

ثم ينتقل إلى حقوق الأخوة وكأنه يقول إن النساء بصفة خاصة لهن حقان: حقوق الأخوة وحقوق الزوجية فإذا لم يراع

الزوجان حق الزوجية راعَين حق الأخوة، ومن جانب آخر إن مقتضى الأخوة أن يحسنَ كلٌّ من الزوجين عشرة صاحبه. وبمجيء ما بعده من التنبيه على وحدة الأصل ووحدانية الرب تعالى وضع دليلاً مادياً على موجب الوحدة، ولكأنه سلسلة من حلقات يرتبط بعضها ببعض. ومن ثم نفى التفاضلَ بغير التقوى كنتيجة للترتيب المتقدم.

ومن جانب الموتى والوصية، كأنها نهاية حياة الإنسان، فجاءت في نهاية الخطبة استتباعاً لترتيب شؤونه حتى الموت. ويجيء حق الفراش والتحذير من الانتساب لغير نسب حقيقي، إنما هو فرع عن الوصية والميراث لأن أصل الميراث مبناه على النسب ولواحقه.

وبهذا نجدها تشكل وحدة نظامية ومنهجاً تعليمياً وتشريعاً عاماً شمل وجمع وعم وخص، فكانت صورة صادقة لما أردنا من تصوير الخطابة الإسلامية التي تَعرِض الإسلام للمسلمين.

ولعلنا نكتفي بالدراسة والتحليل للنماذج الخطابية ونأتيْ بنماذج للتحضير ليكملها الطالب ويصوغها بنفسه.

نماذج للتحضير والإعداد

من المواضيع الهامة والتي يتناولها الجميع موضوع الحج، ولا سيما في هذه البلاد وأثناء الموسم. فكيف نحضّر لهذا الموضوع الهام؟

الواقع أن لهذا الموضوع عدةَ جهات، ويُنظر إليه من عدة زوايا. فلكي تلم بما تريد وتعد له إعداداً صحيحاً يجب أن تحدد الجهة التي تريد التحدث عنها.

نواحي هذا الموضوع:

١ ـ منها المشروعية، ومَنْ فرضه؟ وعلى من يجب؟ وهذه ناحية فقهية تستتبع شرح الوجوب والنيابة عن العاجز وشروط الإيجاب، وما هو موجود في كتب الفقه. وهذه الناحية لها حِلَقُ الدروس لا مواقف الخطابة، وعليه فهي تُحضَّر من كتب الفقه والحديث التي تعنى بالأحكام وتفسير آيات الحج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ . . .﴾ [آل عمران: ٩٧].

٢ ـ ومنها جهة الترغيب والترهيب، بخصوص المبادرة إلى أدائه ومراعاة آدابه وبيان فوائده وآثاره. وهذه الجهة لها الدروس العامة خطابة أو محادثة، ويحضَّر لها من كتب

الرغائب والأحاديث العامة في هذا الموضوع.

٣ ـ ومنها الناحية الاجتماعية وما فيها من ارتباط الأمة وتحقيق مصالحهم، وتحصيل منافعهم، على حد قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

وهذه الناحية يمكن أن يدخل فيها الاقتصاد والسياسة والثقافة والصحة ونحو ذلك، وبما أن الناحيتين الأولى والثانية ظاهرة المعنى، سهلة التحضير، فندعهما للمجهود الشخصي.

أما الناحية الثالثة فهي أقل تناولاً وهي أهم علاجاً بالنسبة للعقليات الجديدة والاتجاهات المادية والمستحدثة، مما يشبع رغبات الناشئة فكرياً وعلمياً، ويسد الفراغ في أذهانهم من أعمال الإسلام كمجرد طقوس دينية اعتادها الناس لا غير.

وعليه فيمكن أن نجعل العنوان كالآتي:

الحج مؤتمر إسلامي عام
فما هي طرق الاستفادة منه؟

فالخطابة في هذا الموضوع تحت هذا العنوان تكون من خطوات:

الأولى: كالمقدمة إثارة الشعور وإيقاظ العواطف إلى الموضوع وتحقيق ذلك بالآتي:

أ ـ الحديث عن مشروعية الحج من أنه متأخر عن كل

الفروض الأخرى ليكون كخاتمة جامعة لأركان الإسلام.
وينبه هنا بذكر ما يشتمل عليه الحج من عقائد سليمة في التلبية ونحوها.

ب ـ ثم من صلاة كركعتي الطواف امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

جـ ـ ثم الإنفاق المائل في الاستطاعة التي فسرها النبي ﷺ بالزاد والراحلة[1] على أن تكون من حلال رجاء القبول.

د ـ ثم الصيام بدلاً عن دم الهَدْي، فهذا بيان شموله على أعمال الإسلام كلها ولهذا تأخرت مشروعيته ليكون تطبيقاً عملياً للجميع.

ثم من عوامل الإثارة له بيان وجوبه على خصوص المستطيع:

وهذا وإن كان إرفاقاً بالأمة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فهو يشعر بعظم أدائه وتميز من أدَّاه عن غيره.

ويمكن أن يستأنس لهذا المعنى بما يروى: أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة أُمر بالنداء إلى الحج. فقال: يا رب وأين يبلغ ندائي؟ فقال له: عليك النداء وعلينا البلاغ، فصعد أبا قبيس فقال: أيها الناس، إن الله ابتنى لكم

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٤٤٢)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٩٨٨).

بيتاً فحجوه. فلبى كل من كتب له الحج. فمن لبى مرة حج مرة. ومن لبى مرتين حج مرتين. وعليه قول العلماء: الحج مأدبة الملك لا يجلس عليها فضولي. ويصدقه أو يقويه ابتداء الحاج عمله بقوله: لبيك اللهم لبيك. ولبيك إنما هي إجابة لنداء.

ثم تعرض آداب الحج في القرآن الكريم: على مبدأ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ . . .﴾ [البقرة: ١٩٧].

فهذه المنهيات وإن كانت عامة في جميع أيام السنة إلا أن النهي عنها هنا بالخصوص يشعر بالاهتمام بالحج وقداسة أعماله وأيامه! وكأنهم مقدمون على مَلِك في ديوانه. فيعملون آداب القدوم عليه. ولله المثل الأعلى.

وبهذه النقاط سنكون أثرنا شعور المستمع إلى أهمية الحج وأوجدنا عنده تطلعاً إلى موضوعنا فنأتي إليه برفق.

عرض الموضوع: نأخذه على مبدأ: إن اجتماع الحجيج والعناية به لتحقيق منافع عاجلة كما فيه منافع آجلة ونجعل مبدأ هذه المنافع قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

ونعلق على مجيئها بصيغة الجمع (منافع) فنعدد ما يمكن أن نحصل عليه من منافع الحج التي هي صلب الموضوع الذي نريده فنذكر على سبيل الإجمال الآتي:

أ ـ في المجال الديني: فهو مؤتمر عام للوعظ والإرشاد

وتدارس أمور الدين ودراسة القضايا المستحدثة من مجموعة علماء العالم الإسلامي. وشرح مبادئ الإسلام كل سنة لكل وفد كما فعل ﷺ من بيان وتبليغ وتكليفهم بإبلاغ مَنْ وراءهم.

ب ـ في المجال الاقتصادي: ونبين أنه يمكن تبادل السلع ودراسة وسائل الإنتاج في العالم الإسلامي، ونبني هذا على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

جـ ـ الفن: طب وهندسة على أساس أنهما من ضمن المنافع العامة.

النتيجة: ثم نأخذ ونعدد النتائج التي يحصل عليها العالم الإسلامي أفراداً وجماعات على النحو التالي:

أ ـ الأفراد: ستبدأ إفادة الفرد عند أول يوم يعزم فيه على جمع المال للحج لأنه سيتحرى طرق الحلال وبهذا يستفيد ويفيد. يفيد مجتمعه بتوفر الأمانة والصدق.

ب ـ ثم تأتيه الاستفادة من كل نُسُك من مناسك الحج على حدة، مما يليه عمل المناسك، فإذا كان الوقت متسعاً والمستمع مطمئناً ومتجاوباً، أخذنا نعرض مناسك الحج كل نسك على حدة، ونبين ما فيه من حكمة التشريع وفوائد معنوية تكسب القلب إيماناً والنفس إجلالاً.

وإذا كان الوقت لا يتسع أو المستمع قلقاً لظروف ما. أوجزنا الكلام عليها بدون إطالة.

كجعل الطواف التفاف المسلمين حول بعض والجميع في جوار الله.

وجعل السعي تحقيق اليقين والتوكل على الله كما فعلت هاجر عليها السلام... إلخ.

وجعل الوقوف تذكرة بالموقف العظيم والمساواة بين مختلف الطبقات... إلخ.

وجعل المزدلفة كفترة انتقال.

والرمي كإعلان الجهاد على العدو في رمي إبليس وإعلان الحرب عليه ومبادأته بالقتال لنحذره فيما بعد.

والنحر إحياء لسنة إسماعيل وبر الوالدين وتضحية الآباء في طاعة الله ولو بذبح الأبناء.

إلى مثل ذلك في سبيل الإيجاز أو الإطناب حسب المقام.

تحضير موضوع آخر بعنوان
«الاستقامة أساس كل خير»

الخطوة الأولى: استحضار النصوص التي لها صلة بالموضوع. مثل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ...﴾ [فصلت: ٣٠].

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ...﴾ [الأنعام: ١٥٠ ـ ١٥٣].

ومن السنة: حديث: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[(١)].

وحديث: «خط لنا رسول الله خطّاً مستقيماً...» إلخ[(٢)].

الخطوة الثانية: نرجع إلى تلك النصوص لنتخيَّر منها ما نجعله أساساً للموضوع وما نجعله بمثابة الاستشهاد والتوضيح... إلخ.

فسنجد في هذه المجموعة:

الآية الأولى والحديث الأول، متفقان في الإيمان والاستقامة والآية شاملة فتكون هي مع الحديث أساساً.

ثم نجعل آية الفاتحة لبيان منزلة الاستقامة والعناية بها ونأخذ ذلك من تكرارها في كل ركعة وما يتقدمها من معاني الحمد وما بعده في السورة.

ثم نجعل آية الوصايا ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾، بياناً لمجمل ما تكون عليه الاستقامة.

مع عرض أقوال الأئمة والخلفاء في تفسير الاستقامة ومعناها كما رواه ابن كثير في تفسيره عند الآية الأولى.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥ و٤٦٥)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).

ثم نأتي بالخاتمة: وهي أن نعود إلى آية الأساس ونستطرد في ذكر نتائج الاستقامة وما أعد الله لهم من الجزاء عاجلاً وآجلاً ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ... غَفُورٌ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]، بشيء من التفصيل حسب ما يقضي به المقام.. وهكذا في جميع المواضيع التي تعرض لي أو تطلب مني.

ثم لا مانع عرفاً ولا عقلاً ولا أدبياً أن نكرر موضوعاً واحداً في عدة أماكن أو أزمان مختلفة ما دام المستمع قد تجدد وتغير لأن المستمعين الأُوَل مضوا بما سمعوا وهؤلاء الجدد في حاجة إلى سماع مثل ما سمعه غيرهم كما لو تنقلتَ في عدة مساجد أو عدة بلدان، أو كنت في الحرمين وفي كل موسم تتكلم عن الحج لتغيرِ أفرادِ الحجيج.

ومثل ذلك تماماً ما هو واقع بالفعل في برامج الدراسة ـ ابتدائية أو جامعية ـ، فإن البرنامج يكرر كل سنة، لكل فصل، كلما تجدد الطلاب لأن المستجدين في حاجة إلى دراسة ما درسه الآخرون، وهكذا...

ومن الجدير بالداعي والخطيب والمصلح أن تكون له نظرات ثاقبة أو معرفة تامة لنفسيات الناس واستعداداتهم، فيتخير من رواده أو ملازميه مَن يغرس فيه أسس الخطابة وطريقة الإلقاء، أملاً في إيجاد خطباء يشتركون معه في تبليغ رسالته ويعاونونه في أداء مهمته.

ولهذا كلما كانت خطاباته مركزة، أمكنَ لمثل هذه العناصر أن تستوعبها وأن يظل تأثيرها في النفوس أمداً أطول.

والخطابة بصفة عامة كالغذاء، فمن الغذاء ما تكون آثاره في وقته، ومنها ما يظل أثره في الجسم إلى زمن بعيد، ومثلها الدواء، فمنه (الإسبرين) كمسكّن مؤقتاً، ومنها ما يظل أربعاً وعشرين ساعة.

فعلى الخطيب أن يكون طبيباً يراعي حالة المخاطَبين، وكلما عُني بتشخيص الداء وتحرِّي نوع الدواء، كلما كان أقرب إلى النجاح والوصول إلى مطلوبه.

وبالله التوفيق.

إذاً... رأينا مدى أثر الخطابة، وتتبعنا خطوات التحلل في نماذج عديدة، ورأينا كيفية التحضير، فنأتي بنماذج خطابية: يطلب تحليلها بإشراف من المدرس، سواء في الفصل أو خارج الفصل، ثم تناقش في الدرس.

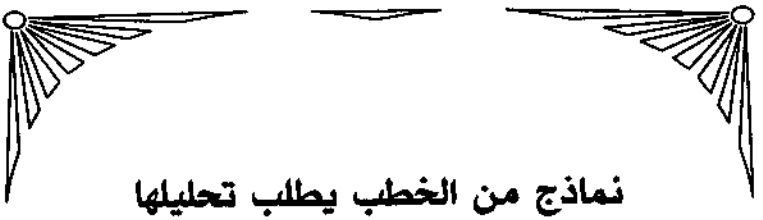

نماذج من الخطب يطلب تحليلها

١ ـ خطبة للصدِّيق ﷺ بعد البيعة:

حَمَدَ الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناسُ: إني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إنّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذَ الحقّ له، وأضعفكُم عندي القويُّ حتى آخذ الحق منه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الدراسة: في هذه الخطبة الموجزةِ رَسْمٌ لخطة الحُكْم وبيانٌ لموقِف الحاكم وفيها تحميلُ الرعية جزءاً من المسؤولية، وفيها بيان لحقيقة الحاكم في نظر الإسلام وبم يجب طاعته.

بَيَّن كل ذلك في كلام فصيح وخَطابةٍ حماسيةٍ تناسب موقفَ الرئاسة، وعِظَم المسؤولية.

٢ ـ وصل إلى الصديق ﷺ مال من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضب الأنصار وقالوا له: فَضِّلْنَا؛ فقال: صدقتم، إن أردتم أن أفضِّلَكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن

صبرتم كان ذلك لله ﷻ، فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا. فرقي أبو بكر المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال:

«يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظِلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، قلتم؛ وإنَّ لكم من الفضل ما لا يُحصيه العددُ وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت
بنا نعلنا في الواطئين فزلَّت
أبوا أن يملونا، ولو أن أُمَّنا
تلاقي الذي يلقون منا لملَّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأظلَّت»

الدراسة:

قابل الصدِّيق موقفاً حرجاً، فكيف تغلّب عليه؟ اعترف للأنصار بفضلهم مع أنه لم يزدهم شيئاً وانصرفوا راضين.

- بَيِّن المناسبةَ مع موقف الأنصار من المهاجرين، وموقف بني جعفر مع الغنوي. لمَ رقي الصديق المنبر وخطب هذه الخطبة، مع أن الأنصار قد انصرفوا راضين مقتنعين بالجواب؟ واذكر ما يحضرُك من موقف الرسول ﷺ مع الأنصار في غزوة حنين بعد تقسيم الغنائم.

نماذج لعمر ﷺ

٣ ـ وخطب عمر ﷺ إذ ولي الخلافة، صعد المنبر ثم قال:

ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر، ثم نزل عن مجلسه مرقاة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اقرؤوا القرآن تُعْرَفوا به، واعمَلوا به تكونوا من أهله، إنه لم يبلُغ حقَّ ذي حقٍّ أن يُطاعَ في معصيةِ الله، ألا وإني أنزلتُ نفسي من مال الله بمنزلة وَالي اليتيم: إن استَغْنَيْتُ عَفَفْتُ، وإن افتقرْتُ أكلتُ بالمعروف تَقرُّم البَهْمَةِ الأعرابية. القَضْمَ لا الخَضْم[1]. اهـ.

يقال: تقرم الصبي: أكل أكلاً ضعيفاً، والبهمة: جمع بهم أولاد الضأن الصغار. القضم، والخضم: كلاهما القطع بالأسنان، غير أن أحدهما لليابس الشديد وهو القضم لشدة حرف القاف، والخضم للأخضر لخفة الخاء.

الدراسة: قارن بين هذه الخطبة وخطبة الصدِّيق في مثل ذلك الموقف وما وقع فيه اتفاق بينهما إجمالاً وما انفردت به هذه تفصيلاً.

---

(١) التقرُّم: الأكل أكلاً ضعيفاً.
القضم: الأكل بأطراف الأسنان.
الخضم: الأكل بأقصى الأضراس. (حاشية في الأصل).

٤ ـ وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه فقال:

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ فهدانا به من الضلالة، وجَمَعَنا به من الشتات، وألَّف بين قلوبنا، ونَصَرَنا على عدونا ومكَّن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين، فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم الوعد، بالنصر على من خالفكم، وإياكم والعملَ بالمعاصي، وكفرَ النعمة، فقلَّما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سُلِبوا عِزَّهم وسُلِّط عليهم عدوّهم، أيها الناسُ: إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة، وجمع كلمتها، وأظهرَ فَلْجَها ونصرها وشرَّفها، فاحمدوه عبادَ الله على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

الدراسة: اشتملت تلك الخطبة على عدة نقاط يرتبط بعضها ببعض، بيّن مدى هذا الترابط وحدد تلك المسائل.

خاتمة وتذييل

ولعل فيما قدمناه من بيان أصول الخطابة وعوامل تقويتها وخطوات تكوينها ما عرضناه من نماذجَ مدروسة، ونماذجَ للتحضير، وأخرى للدراسة، لعل في هذا كله تحقيقاً لما نرجوه من توجيه أدبي لعمل خطابي يساعد ويساند الراغب.

وقد توخينا فيه غاية سامية هي: توجيهات إسلامية، وتذوُّق أدبي لمحاسن الخطابة في عدة أغراض، مما يستدعي الملكات، وينمي الأذواق، ويوجد الشعور والاتجاه لدى الطالب، يتهيأ به لإعداد خطبه، وتحضير مواضيعه، ومواجهة مواقفه. بجانب ما لديه من رغبة أكيدة وتطلُّع بعيد لاعتلاء المنابر، ومخاطبة الجماهير وتوجيه الجماعات.

وبما أن هذا الفن يعتمد كل الاعتماد على المقومات الأدبية من مطالعات وتحليلات ومناقشات فإننا ننصح كل طالب أن يكثر قراءة الكتب الرئيسية في الأدب العربي والتي عنيت كل العناية بالعربية كلها والتي اعتبرها الأدباء أصولاً وأمهات، بجانب الكتب الأدبية الحديثة، ولا سيما الموضوعية أي التي عالجت فن الخطابة وفن الكلام الخطابي والإنشائي.

وبما أن المؤلفات الحديثة والقديمة على السواء بالنسبة

إلى الطالب والقارئ على السواء غذاء روحيٌّ وأثرٌ فكريٌّ يتأثر بها من تناولها. وقد وجب علينا أن نتخير لأذهاننا ما ينفعها ولا يلبس عليها كما نختار لأبداننا من الأغذية ما ينفعها ولا يثقل عليها. فإننا نهيب بكل قارئ أن يحذر كل جديد مدسوس، أو قديم مغشوش.

أما القديم فقد ميَّزته أقلام النقاد، وعُرفت دخائله لدى الجميع، ولكن الخطأ يقع في الجديد المستحدث وعلى سبيل المثال وفي نفس الموضوع نخص كتابين أو بالأصح كاتبين هما الدكتور طه حسين والأستاذ إيليا حاوي.

أما الأول فلِما وُجِد في بعض كتبه من جهة الأدب العربي عامة، والنثر والشعر في التاريخ بصفة خاصة. وأما الثاني فلكتابه (فن الخطابة) حيث شوه فيه الخطابة الإسلامية بل وعصر صدر الإسلام وإصلاحاته، ومن العجب أن يتعارضا في موضوع واحد هو الخطابة في الجاهلية.

فالدكتور طه حسين ينفي ما أُثر من شعر ونثر جاهليين، وإيليا حاوي يشيد بهما إلى الحد الذي جعل الإسلام أثراً من آثارهما. و«كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذَمِيمُ».

ولكي نؤكد موجب هذا التحذير ونوقفَ الطالب على تلك الأخطاءِ العديدة المتضمنة الأخطار الشديدة، نسوق الآتي ـ أداء لواجب العلم وتوخية للأمانة ونصحاً للناشئة، ولا سيما وقد تتأثر مسامعهم بسمعة بعض الكتّاب ـ:

مع الدكتور طه حسين

أما ما يتعلق بكتابات الدكتور طه حسين: فقد سبق له أن تكلم عن الشعر الجاهلي وعن القرآن الكريم، أثناء تدريسه الأدب عام ١٩٢٧م، وكان لكلامه أثر سيء تناوله الناس إلى أن وصل إلى مجلس النواب عام ١٩٣٢م، حين عرضه النائب المحترم الدكتور عبد الحميد سعيد قال: إن الدكتور طه حسين أملى على التلاميذ ما نصه: وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن، وقررنا أنه ليس على نسق واحد، واليوم نوضح هذه الفكرة، فنقول: (لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا في الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة أو تأثر ببيئات متباينة... إلخ)، ويكفي منه جرأة قوله: (لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين)، وقد جرَّته جرأته إلى أعظم من ذلك، لا إلى النقد والمقارنة والتهجم بالمعارضة بل بالاعتراض والنفي.

ففي كتابه (الشعر الجاهلي) نفى صحة قصة إبراهيم وإسماعيل وبنائهما للكعبة، وزعم أنهما خرافة اخترعها اليهود لغرض سياسي، حيث يقول: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم

وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.

وقد تتبعه الأستاذ محمد أحمد عرفة وكيل كلية الشريعة بالأزهر في كتابه بعنوان (نقض مطاعن في القرآن الكريم) طبعه وعلق عليه السيد رشيد رضا بمطبعة المنار عام ١٣٥١هـ.

رد المؤلف تلك المطاعن إلى الأصل المنقولة عنه من كتب المستشرقين، منها كتاب «ذيل مقالة في الإسلام» طبع للمرة السادسة في مطبعة النيل المسيحية وفيه الطعن على قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة في ص٣٥٢. وعليه فيكون الدكتور: إما مخدوعاً بمن كتب قبله أو مخادعاً لمن يكتب إليه من بعده.

ثم هو يعود عام ١٩٦٤م أي بعد سبع وثلاثين سنة يكتب في كتاب له بعنوان «في الأدب الجاهلي» فينفي كل ما نسب إلى خطباء العرب في الجاهلية ويقول في أخريات كتابه متسائلاً ومجيباً: لو تسألني عن كل ما جاء عن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وغيرهما من وفود العرب عند كسرى فأقول: أرفض بدون تردد. ثم يقول: ولا أقول: إن العرب لم يعرفوا الخطابة ولكن لم يصل إلينا عنهم شيء بطريق قاطع ولك ما نقل عن هؤلاء عليه الصبغة الإسلامية، لهدوئه وتنظيمه، وقد انتُحل أكثره في القرن الثاني أو الثالث الهجري.

ثم هو يربط بين هذا المبحث الجديد أو القديم المتجدد وبين ما كتبه سابقاً في الشعر الجاهلي فيقول: والدوافع التي دعت إلى انتحاله هو عين الدوافع التي أدت إلى انتحال الشعر الجاهلي. ويجدد شوائب الطعن على القرآن فيقول: ولا يوجد نثر يُنظر إليه إلا القرآن الكريم. اهـ ملخصاً.

ونستطيع أن نقول: إن هذا الادعاء يجب أن يرفض بدون تردد. بل ويتوجه إليه عدة علامات استفهام:

ماذا وراء هذا كله؟ أهي أمانة العلم، ودقة التحري، أم هي نوازع أخرى؟

ثم ما علاقة ربط القرآن الكريم ـ كلام الله تعالى ـ بهذه المقاييس الأدبية وعرضه على الموازين النقدية؟ وهو الذي يقول عنه: إن القرآن ليس بنثر ولا شعر إنه قرآن فقط إنه كلام الله تعالى! ولكنها النوازع السابقة التي قالها من قبل: (إن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر)!؟

فمثل هذا الكاتب، لا ينبغي التعويل على كتابته في المبادئ الإسلامية، وإن بلغ شأواً في التنميق والتنسيق وتنوع الأساليب كما هو معروف له.

وقد تكون قوة الأسلوب أدعى لترويج الباطل وتمويه الحقائق. ولهذا أوردت هذا القدر ليتم التنبيهُ على ما أردنا التحذير منه.

مع إيليا حاوي

يقابل هذا ما كتبه «إيليا حاوي» في كتابه (فن الخطابة). فقد أفرط في علوّه وإطرائه وتمجيده للشعر والنثر الجاهليَّيْن، حيث جعلهما أساسَ توجيهٍ لإصلاح المجتمع، ومتنفَّساً للسادة الموجهين، وللقادة المصلحين، بل جعل الإسلام في إصلاحه إنما هو امتداد لتلك النهضة العربية الجاهلية؛ وتنفيذاً لما أسماه (الثورة الإصلاحية) وحقاً ما قيل: «كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ».

وقدَّم لفكرته بعرض أدبي وأثر اجتماعي، إن هو صحَّ في أوروبا والعالم الغربي، فهو بعيد كل البعد عن الإسلام والعالم الإسلامي.

قال في فصل الخطابة ودوافعها في العصر الإسلامي: إن من يمعن النظر في دراسة الأسباب التي تؤدي إلى الثورات، يتحقق له أن الثورة الفكرية تتقدم الثورة السياسية وبالأحرى يظهر له دائماً أن الثورة الثانية ليست في الواقع سوى امتداد للأولى ونتيجةٍ لها، فقبل السياسيين العظام يسبق عدد كبير من المفكرين العظام فيعدون النفوس، ويثيرون فيها الدوافع العميقة، لتبديل الأوضاع التي دأب عليها الإنسان منذ زمن طويل. فالمفكرون والخطباء اليونان والرومان هم الذين أعدوا النشأة (بريكليس) و(يوليوس قيصر)، وكذلك فإن الثورة الإنجليزية والأمريكية كانت وليدة الأفكار والآراء والنظرات

الجديدة إلى الحياة الجديدة والكون، أكثر مما كانت وليدة السلاح والاقتتال. اهـ.

ثم يستطرد في تعدد الثورات إلى عصرنا الحاضر متمثلاً بالحركة الشيوعية فربطها بأفكار ماركس ولينين.

ثم يقول: ذلك جميعاً يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الثورة الاجتماعية والسياسية التي ظهرت معالمها في العصر الإسلامي لم تكن في الواقع وليدة اللحظة التي تفجرت فيها، بل إنها وليدة مقدمات بعيدة الغور في وجدان العرب الذين دأبوا على عبادة الأوثان، والإيمان بالخرافات الغيبية.

ثم يقول: إن الثورة التي طفرت في العصر الإسلامي كنا نستشفها في الشعر الجاهلي وبخاصة في شعر طرفة رسول الولادة الجديدة، حيث يظهر هذا الفتى متململاً هازئاً من الاعتقادات والمثل العليا الجاهلية، وظهرت في خطب أكثم بن صيفي وفي خطب قس بن ساعدة... إلخ.

انظر إلى طرفي التناقض بين الكاتبين، فالأول ينفي كل أثر جاهلي أو بالأصح الخطب الجاهلية. بينما هذا الثاني يجعل هذا التراث الجاهلي أساساً للنهضة الحديثة في صدر الإسلام ويغالي في أحد الشعراء الجاهليين «طرفة» فيسميه: (رسول الولادة الجديدة).

ولست أدري علام جعله رسولاً لولادة جديدة؟ وما نوع رسالته التي آمن له بها؟ أو على قوله:

ولولا ثلاثٌ هن من شيمةِ الفتى
وجدُّك لم أحفلْ متى قام عُودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكَرّى إذا نادى المضاف مجنباً
كسيد الفضا نبهته المتورد
وتقصيري يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد

فتلك خلال ثلاث، الأولى: سبق العاذلات بشربة. والثانية: حماية المستجير. والثالثة: لهوه يوم الغيم..

وهن ما عدا الوسطى لهو ولعب، والثانية منهن قد تكون حميَّة وفتوَّة. فهي من أحسن ما فيه.

أما الشرب واللعب وهما دأبه كما قال عن نفسه:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

ولو وجد اليوم في أي مجتمع، لحكم عليه بالسفه، ولحجر عليه، وأودع مصحات الأحداث.

فأي رسالة يحملها من يبيع طريفه ومتلده، في ملذاته، ومعاقرته، اللهم إلا رسالة التحلل والتسول.

وأما عن دعواه: إن كل ثورة سياسية فهي امتداد لثورة

فكرية فهذا إن صح في الأوساط الأوروبية وغير الإسلامية فلا يصح فيما جاء به الإسلام قطعاً.

ونحن نقول: إن هذه الدعوى تدور بين الجهالة والخيانة.

فإن كانت تجاهل العارف فهي خيانة.. وإن كان قاسها على الأوضاع الأوروبية فهي جهالة. ثم على كلا التقديرين فهي فرية عظمى، جهالة بطبيعة الخطابة، وفرية على الإسلام.

إيضاح تلك الجناية. ورد تلك الفرية.

أما إيضاح تلك الجهالة: فبيان سببها ذلك أنهم نظروا إلى الأوضاع الأوروبية وتأثروا بها وحاولوا تطبيقها على غيرها. ولم يراعوا طبيعة كل دعوة ومنهجها، فأوقعهم ذلك في هذا الخطأ. فلئن كان ما قالوه ينطبق على الثورات المدنية والتغييرات الاجتماعية وانتقالها من وضع إلى وضع كلاهما موضع اجتهاد ومرجع اختبار الشعوب. في ألوان حياتهم. فإنه لا ينطبق على الإسلام بحال من الأحوال لأن خطباء تلك المجتمعات وكتابها الذين يدعون القادة إلى التغيير وهم الذين يهيئون الشعوب للاستجابة، ثم هم الذين يرسمون خطة الإصلاح ويعرضون مناهج وبرامج لما يدعون إليه، فلا يكون دور القادة والمصلحين إلا التنفيذ وإلزام المعارضين.

ومن ثم تكون النتائج إيجابية من أول لحظة يعلن عن تلك المبادئ ولو من البعض إن لم يكن من الكل. والوضع

مع الإسلام على العكس تماماً، من جهة الخطباء ومن جهة النتائج.

أ ـ أما من جهة الخطباء، فلم نجد ولا خطيباً واحداً دعا القادة إلى تغيير ما هم عليه أو رسم منهجاً للناس يسيرون عليه، وغاية ما وجد من أمثال قس بن ساعدة إنما هو قلق فكري، وتحير عقائدي، وتساؤل عن المغيبات، فهي لا تعدو أن تكون سخطاً على الحاضر، وتحيراً في المستقبل.

أما أكثم، فما تكلم إلا بعد أن ظهر النبي ﷺ وبدأ دعوته وظهرت مبادئها فأرسل أكثم ولده إلى النبي ﷺ وشافهه ورجع إلى أبيه وأخبره عنه. فكان ما تكلم به أكثم من دعوة إلى الإصلاح تعبيراً عن واقع استنتجه من واقع الدعوة وحال الأمة.

أما طرفة «رسول الولادة الجديدة»، كما أسماه الكاتب، فقد رأينا نوع رسالته في شرابه ولذاته وبيعه طريفه ومتلده.

إذن فليست هناك دعوة أو نهضة خطابية سبقت الإسلام مهدت إلى الإصلاح الإسلامي وليست الإصلاحات الإسلامية وليدة مقدمات بعيدة الغور في وجدان العرب بل ولا قريبة في كلام خطبائهم.

ولكن الذي كان بالفعل إنما هو إساءة حالة الأمة العربية وقلقها واضطرابها وتناقضها في اتجاهاتها، سواء في المعاملات أو المعتقدات، حتى سئم عقلاؤها ما هم عليه من

أوضاع، يصور ذلك حقاً ما جاء عن عمر ﷺ: أنه كان في الجاهلية يصنع له إلٰهاً من تمر يضعه عند رأسه ليحرسه حتى الصباح فإذا أصبح معافى أخذ إلٰهه وأكله. فما هي قيمة حراسة مثل هذا الإلٰه؟

ويصوره أيضاً قول الشاعر لما رأى ثعلباً مر على بعض آلهتهم فبال الثعلب عليه فأنشد:

أربّاً يبول الثُّعلبانُ برأسه
لقد خاب من بالتْ عليه الثعالبُ

وما قيمة إلٰهية من يبول الثعلب على رأسه. ومثله قول عمرو بن الجموح في شأن صنمه المشهورة.

وهي أنه كان له صنم وكان عمرو سيداً من سادات قومه وشريفاً من أشرافهم وقد اتخذ له صنماً من خشب وضعه في داره يقال له (مناه) كما كانت تصنع الأشراف. فلما أسلم فتيان من بني سلمة كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه ويطرحونه في بعض الحفر وفيها النجاسات منكساً على رأسه فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه. ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمدوا وعدوا عليه. وهكذا حتى جاء يوماً بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى. فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فعدوا عليه أيضاً ليلاً وأخذوا

السيف ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل وألقوه في بئر فيها نجاسة فخرج يطلبه فلما رأى حاله وأراد الله له الخير وأسلم قال يذكر حال صنمه ويشكر الله على نعمة الإسلام:

واللهِ لـو كـنـتَ إلٰـهـاً لـم تـكـنْ
أنـتَ وكـلـبٌ وسـطَ بـئـرٍ فـي قـرن
أُفٌّ لـمـلـقـاك إلٰـهـاً مـسـتـدن
لأن مـشـتـكـاك عـن سـوء الـغـبـن
الـحـمـد لله الـعَـلـيِّ ذي الـمِـنَـن
الـواهـبِ الـرزاقِ ديـان الـديـنِ
هـو الـذي أنـقـذنـي مـن قـبـل أن
أكـونَ فـي ظُـلْـمَـةِ قَـبْـرٍ مُـرْتَـهـن

ومثل هذه الصور معتقدهم في المآل كما قال الشاعر:

أرانـا مـوصـفـيـن لأمـر غـيـب
ونـسـحـر بـالـطـعـام وبـالـشـراب

فجعل انقضاء الأيام سيراً حسيساً إلى أمر غيب، وهو ما بعد الموت فلا يدري ما بعد الموت. من تعب وجزاء وجنة أو نار، ونظر إلى الحياة وكأنها لغز من ألغاز السحر وعبر عنه بقوله: ونسحر بالطعام وبالشراب.

وفي بعض العادات الاجتماعية نرى بعض العقلاء يتزمَّت من بعضها كشرب الخمر مثلاً فيقول:

رأيت الخمرَ صالحةً وفيها
خِلالٌ تُفسدُ الرجلَ الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً
ولا أشفي بها أبداً سقيما
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي
ولا أدعو لها أبداً نديما
لأنّ الخمرَ تفضح شاربيها
وتجنيهم بها الأمر العظيما

وهذا وضع فطري وفساد ملموس. تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيم.

فهذا كله انتقاد لوضع، وليس فيه دعوة لدين جديد ولا تفصيل لمنهج إصلاح.

أما خطبة قس بن ساعدة التي استدل بها الكاتب على دعواه، فقد تقدمت دراستها، ونحن نعيد النظر فيها هنا لننبه على بطلان دعواه.

فبالنظر فيها جملة: نجدها تعبيراً عن حيرته، وتطلعاً إلى أوضاع أحسن مما هم عليه. وبالنظر فيها تفصيلاً نجده في مقدمتها عني باستصغاء السامعين وأن يعوا فعاله. فكان موفقاً في استهلاله، ثم جاء بقضايا واقعية أي ليست بجديدة ولا مستنتجة: من عاش مات، ومن مات فات، وهذه بديهيات كما في قول الشاعر:

كـل ابـن أنـثـى وإن طـالـت سـلامـتـه
يـومـاً عـلـى آلـة حـدبـاء مـحـمـول

ثم انعطف على ما حوله: ليل داج، ونهار ساج، ظلام الليل وضياء النهار وما فوقه من سماء وحوله من جبال، سماء ذات أبراج، وأرض بأنهارها وجبالها، والجديد فيها قوله: إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً. وليس بجديد على قومه فكم تكلم به الكهان من قبله مثل «شق» و«سطيح» وغيرهما. فكأنه لا جديد فيها بالنسبة إلى السامعين.

ثم يعود إلى حيرته السابقة، فيقول صراحة: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟!

ويتساءل بدون أن يجد الجواب: أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ ثم يقسم قسماً يبر فيه أن لله ديناً هو أرضى له وأرضى من دينهم الذي هم عليه.

فهذا عين ما قلنا من السخط على الأحوال التي عليها قومه بصريح القول منه: إنكم لتأتون من الأمر منكراً. فلا يخرج في خطبته عن النقطتين اللتين أشرنا إليهما:

أ ـ السخط على الواقع.

ب ـ والحيرة في أمر المستقبل.

وجاءت أبياته خلاصة لخطبته. حيث قال:

فـي الـذاهـبـيـن الأوَّلـيـنَ مـن
الـقـرونِ لـنـا بَـصَـائـرْ

لـــمـــا رأيـــتُ مـــوارداً
لـلـمـوتِ لـيـسَ لـهـا مـصـادرْ
ورأيـــتُ قـــومـــي نـــحـــوَهـــا
يـمـضـي الأكـابـرُ والأصـاغـر
لا يَـرجـع الـمَـاضـي إلـيّ
ولا مـن الـبـاقـيـن غـابـر
أيـقـنـت أنـي لا مـحـالـةَ
حـيـثُ صـارَ الـقـوم صـائـرْ

فهي أيضاً تصوير لوضع واحد: هو ذهاب الأشخاص إلى المقابر بدون رجعة من سالف القرون إلى أفراد قومه. فكان استنتاجه عادياً وهو أن يصير إلى ما صار إليه غيره، الكبير والصغير، الماضي والحاضر.

ومن خلال هذا العرض نجدها لم تأت بجديد يمكن أن يكون دعوة لإصلاح أو تمهيداً لتغيير أوضاع.

ولم تعد، كما قلنا تصويراً لواقعهم وتعبيراً عن سخطه وحيرته.

وعليه فيكون مجيء الإسلام إن أردنا أن نعلل له؛ إنما جاء استجابة لرغبات إصلاحية لا نتيجة لدعوة فكرية.

جاء لإصلاح أوضاع أفسدتها الأهواء، جاء بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات فضلاً عن أسمى معانيه من إخراج الناس من ظلمة الجهل وعبادة الأوثان إلى نور العلم وعبادة الله وحده.

وقد قال أكثم بعد أن سمع عنه من ابنه فدعا قومه وعرض عليهم اتباعه وقال لهم: إن كتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمر فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

وقال لهم: إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً، كان في أخلاق الناس حسناً. فالنفوس إذن متطلعة إليه يأخذ به ذوو الرأي ويستحسنه الناس في أخلاقهم ومجتمعاتهم. فهم متطلعون إليه وليسوا دعاة له. وهذا التطلع وهذا الاحتياج لهذا الإصلاح أمر طبيعي إبان كل دعوة.

لأن كل دعوة إنما تأتي عند بلوغ الفساد أقصاه واشتداد حاجة الناس إلى من ينقذهم مما هم فيه من ظلم وضلال واضطراب وتفشي الأخلاق الفاسدة.

فعندما تشتد حلكة الظلام، وتعمي طريق الحق وسبل الخير، ويضل الناس ويتيهون في حيرة، آنذاك تطلع عليهم شمس رسالة جديدة فتخرجهم بنورها من الظلمات وتهديهم سواء السبيل.

فهكذا كان مجيء الإسلام على فترة من الأديان، ومبعث الرسول ﷺ على فترة من الرسل بعد أن ساء الوضع وتطلعت النفوس إلى الإصلاح، ولم يكن امتداداً لفكرة سابقة ولا وليداً لما في نفوسهم.

وأما من جهة النتيجة وهو يؤيد ما مضى: فإن النتيجة كانت عكسية بالنسبة إلى ثورات أوروبا تماماً.

لأن الإسلام عند ظهوره والنبي ﷺ عند دعوته الناس إليه لم تكن النتيجة إيجابية ولا قريبة من الإيجاب كنتائج الثورات في أوروبا.

نتائج الثورات في أوروبا كانت إيجابية بنسبة عالية لا أقل من خمسين في المائة يستجيبون لها إثر ظهروها. ونتائج الدعوة الإسلامية كانت عكسية وسلبية إلى أبعد حدود السلبية بل تعدت السلبية إلى معاداة الداعي وإنكار ما يدعو إليه. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: ٢]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧]، فنفوا أن يكونوا سمعوا بهذا في الملة السابقة قبلهم بعد أن تعجبوا من أصل الدعوة.

ولعلنا بهذا القدر من التنبيه، نكون قد أوجدنا وعياً لدى الطالب يسايره في مطالعته لبعض الكتب، ليأخذ منها ما ينفعه، ويعرض عما لا نفع فيه، بل ويكون فطناً لما يريد الكاتب، والله أسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه آمين.

ولما كان الغرض والغاية من فن الخطابة لدى المسلمين إنما هو العمل في مجال الدعوة إلى الله وبيان محاسن الإسلام وكشف حقائقه فلعل الله ييسر ملحقاً موجزاً لبيان أدب الداعي ومنهج الدعوة، رغبة في إتمام الفائدة إن شاء الله.

وصلى الله وسلم وبارك على سيد ولد آدم، من أُعطي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه وسلم.

الرسائل المدنية

سلسلة أبحاث فقهية وعلمية هادفة كتبها فضيلة الشيخ **عطية محمد سالم** رَحِمَهُ اللَّهُ، القاضي بالمحكمة الكبرى بالمدينة المنورة، والمدرّس في المسجد النبوي.

١ ـ صلاة التراويح أكثر من ألف عام في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ مع الرسول في رمضان.

٣ ـ نكاح المتعة في الإسلام.

٤ ـ زكاة الحلّي.

٥ ـ تعريف عام بعموميات الإسلام (عقائد ـ عبادات ـ معاملات).

٦ ـ منهج الإسلام في كيفية المؤاخاة والتحكيم بين المسلمين.

٧ ـ أصول الخطابة والإنشاء.

٨ ـ معالم على طريق الهجرة.

٩ ـ حكمة التشريع في تعدد الزوجات وتحديد النسل.

١٠ ـ رمضانيات.

١١ ـ آداب زيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله.

١٢ ـ مع الرسول في حجة الوداع.

١٣ ـ الإسراء والمعراج (من الكتاب والسنة).

١٤ ـ سجود التلاوة.

١٥ ـ مع المرضى.

١٦ ـ العين والرقية والاستشفاء من القرآن والسنة.